

الجميع بين القراءتين

الوحي والكون

تأليف

أ. د. طه جابر العلواني

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



رقم الإيداع

٢٠١٣ / ٢٤٣١٩

I. S. B. N الترقيم الدولي

978 - 977 - 717 - 143 - 4

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَهْرُسُ الْمُحْتَوَيَاتِ

٧	مقدمة
١٣	الأمر بالقراءتين
١٦	- القراءة الأولى
١٨	- القراءة الثانية
١٩	- قراءة الكتابين
٢٠	- القراءة إنسانية
٢٠	- وحدة البشرية
٢٢	أخطاء القراءات المنفردة وسلبياتها
٢٢	- إهمال القراءة الأولى
٢٥	- إهمال القراءة الثانية
٢٨	منهجية القرآن المعرفية
٢٩	- محددات ومعالم
٣٢	دور قراءة السنة
٣٧	الجمع بين القراءتين ومداخله
٣٧	مداخل قراءة القرآن
٣٧	١ - تنزيل القارئ للقرآن على قلبه

- ٢ - مدخل الإيمان بالوحدة البنائية للقرآن المجيد .. ٣٧
- ٣ - مدخل الانطلاق من الإيمان
- بـ « وحدة السورة » ٣٨
- ٤ - مدخل القيم العليا ٣٩
- ٥ - مدخل العلاقات بين الله سبحانه والإنسان
والكون المسخر ٤١
- ٦ - مدخل التصنيف الموضوعي ٤٢
- ٧ - مدخل البحث في المناسبات ٤٤
- مداخل قراءة الكون ٤٥
- ١ - مدخل الخلق ٤٥
- معرفة مبدأ الخلق ٤٨
- كشف النظام الدقيق للكون وغائية الخلق ٤٩
- ٢ - مدخل العناية ٥٣
- ٣ - مدخل النظر في الواقع الموضوعي الخارجي .. ٥٧
- كيفية الجمع بين القراءتين ٥٩
- ١ - إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية ٦٤
- ٢ - إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المناهج
الإسلامية ٦٥
- ٣ - بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد ٦٥

٤ - بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة	٦٧
٥ - إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامي	٧٢
٦ - بناء منهج للتعامل مع التراث الإنساني المعاصر ..	٧٢
المهمة قرآنية وكذلك عالمية	٧٥
منهجية القرآن والمصير الإنساني	٧٨
خاتمة	٨٣
قائمة المراجع	٨٥
نبذة عن المؤلف	٩١



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. ونصلي ونسلم على سيدنا محمد عبد الله ورسوله، وصفيّه وخليفه، وخيرته من خلقه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الأكرمين، ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد، فإنَّ القرآن المجيد كلام الله - تبارك وتعالى - أنزله على قلب رسوله الأمين ونبيه الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - ليكون للعالمين نذيرًا.

فهو النور المبين، والذكر الحكيم، والكتاب العزيز. يُخرج من الفتن، ويشفي الصدور، وينقذ من المحن: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

فهو الهادي إلى الرُّشد، والمنقذ من الضلالة، لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد. قال الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت ٨٤٠هـ)، وهو يؤكد على ضرورة الرجوع إلى القرآن المجيد، وعلى حثِّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على ذلك وتقديمه على كل ما عداه، قال: «... فلنقتصر على حديث مشهور يذكر بأمثاله: وذلك

مما رواه السيد الإمام أبو طالب عليه السلام في أماليه، والحافظ المحدث أبو عيسى الترمذي^(١) في جامعه؛ من حديث الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب علي عليه السلام قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي عليه السلام فأخبرته، فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «ألا إنها ستكون فتنة»، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، وَمَنْ ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجباً يهدي إلى الرشd فأمانا به. مَنْ قال به صدق، وَمَنْ عمل به أُجر، وَمَنْ حكم به عدل، وَمَنْ دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم». انتهى هذا الحديث الجليل. وقد رواه السيد

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (١٧٢/٥)، وفي الطبقات التي رقت فيها الأحاديث: رقمه (٢٩٠٨) في باب «فضل القرآن»، وقد استدل به صاحب «إيثار الحق...» في كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» (ص ١٥ ط. دار الكتب العلميّة بدون تاريخ).

الإمام أبو طالب عليه السلام في أماليه بسند آخر من حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه ^(١)، عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بنحوه. ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من طريق الثالثة، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(٢) قال: « ولم

(١) ما رواه معاذ عن عليّ جاء في مجمع الزوائد (١٦٤/٧).

(٢) والمروي بطريق عمر رضي الله عنه تجده في جامع الأصول: الحديث رقم (٦٢٣٢)، لكنه ورد فيه عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - وقال المحقق السيد عبد القادر الأرناؤوط معلقاً: « كذا في الأصل - أي: عن عبد الله بن عمر، وفي المطبوع: عمر بن الخطاب » ولم يرجح. وفيه اختلاف يسير عن رواية الإمام أبي طالب والترمذي حيث جاء في هذه الرواية قول ابن عمر: « ... نزل جبريل عليه السلام على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأخبره: أنها ستكون فتن، قال (أي: رسول الله لجبريل): « فما المخرج منها يا جبريل؟ » قال: كتاب الله ... إلخ. وقد أخرجه رزين، وذكره ابن كثير في فضائل القرآن بمعناه عقب حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود، وقال (أي: ابن كثير): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه « فضائل القرآن » وقال: هذا غريب من هذا الوجه.

وفي سنن الدارمي أورد الحديث في (٥٢٣/٢) برقم (٣٣١٥) عن عبد الله وبدأه بقوله: « إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ... » وختمه بقوله: « فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته ... ». وأما باللفظ الذي معنا فقد أورده الدارمي في الحديث رقم (٣٣٣١، ٣٣٣٢). وقد علق المحققان عليه بقولهما: رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب (١٤) ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (٢٩٠٦) (١٧٢/٥، ١٧٣). وأحمد في المسند (٩١/١). وأبو داود الطاليسي وأبو بكر الأنباري في كتاب « الرد » له عن الحارث عن علي. كما في التذكرة للقرطبي (ص ٤٨) بتحقيقي. قال ابن كثير في فضائل القرآن (ص ١١، ١٢): « لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، =

يزل العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث

= فبرئ حمزة في عهده، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام في القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده (أي: لا من جهة روايته وصدقه)، أما أنه تعمد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (١٠ هـ). والآية رقم (٢) من سورة الجن.

قلت: وفي بعض الشروح حددت «فتنة الحديث أو الأحاديث» بأنها الافتتان برواية «الأحاديث» أو «السنن» عن تلاوة القرآن المجيد ودوام الرجوع إليه، وبعضهم حملها على الأحاديث والأخبار مطلقاً، ففي كل ذلك انشغال عن القرآن وقد يستفيد القائلون بذلك بأحاديث النهي عن كتابة السنن والتأكيد على عدم الانشغال بغير القرآن. قال طه: ولكن الفرق كبير بين انشغال بأحاديث نبوية مرفوعة صحيحة تأتي على سبيل البيان بأنواعه للقرآن المجيد، وبين مطلق الحديث. وفرق كبير بين انشغال لطلب بيان والانشغال بها على سبيل الاستعاضة عن القرآن، والاكتفاء بها بحجة اشتغالها أو تضمنها للقرآن أو بأية حجة أخرى.

لقد استقرت المذاهب الفقهية في العهد الرابع من عهود الفقه وركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف المقلدون على مذاهب الأئمة، والكتابة في مناقبهم، والعمل على ضم الناس إليهم كل إلى مذهبه وإمامه. وجعل بعضهم أقوال أولئك الأئمة مثل نصوص الشارع يدخلها التعارض والترجيح والنسخ وما إليها. ففي عصر الصحابة - خاصة عصر الشيخين - لم يشغلهم شيء عن كتاب الله، ولما انتهت سنة أربعين للهجرة برزت اتجاهات فقهية وبدأ الناس ينشغلون بها.

وحين كان عبد العزيز والد عمر والياً سنة (٨٣ هـ) فكر في جمع السنن، وهو مشروع استكماله ولده عمر بن عبد العزيز، لتكون السنن فقهًا بديلاً عن الفقه الخلافي يرجع الناس إليها لئلا تتفرق بهم السبل الفقهية، ولكن الكثيرين =

متلقً بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعنى في مقتضى الإجماع والمنقول والمعقول.

وقد أودع الله - تبارك وتعالى - كتابه الشرعة والمنهاج فألقننا به من الضلالة، وفتح للعالمين به أبواب رحمته وسبل هدايته. فحمدًا له سبحانه على هدايته، والشكر له على نعمائه وعنايته، أغنانا به - جلّ شأنه - عمّا سواه، وكفانا به عمّا عداه: ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى

= انشغلوا بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتغالها عليه وارتباطها به، وجعلوا من السنن شواهد لأقوال أئمة الفقه، ثم انشغلوا بفقهاء الأئمة عن السنن، وصاروا يتداولون أقوال الأئمة ويفرعون عليها حتى بدا وكأن الشريعة هي أقوال هؤلاء الأئمة، بحيث سوغ الكرخي الحنفي لنفسه أن يقول: « كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي إما مؤولة أو منسوخة ».

« أصل: واعلم أن كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما مؤول أو منسوخ »!! ومهما يقال في تأويل ذلك أو التخفيف منه فإنه قول جريء يدل على أن التعصّب للمذاهب قد بلغ مستوى مرَضِيًّا بحيث صار الأصل تابعًا للفرع، بل محكومًا به؛ ولذلك فإن إعادة بناء الأئمة واستئناف شهودها الحضاري وشهادتها على الناس لا يمكن أن تعود إليها ما لم تتجاوز هذه الإصابات الخطيرة، وترد الناس إلى القرآن المجيد مصدرًا منشأً وكاشفًا عن الأحكام وغيرها مما تناوله أو تعلق به؛ فقد أنزله الرحمن الرحيم ﴿ يَتَيْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]. وما اختلف فيه أو عليه لا بد فيه من الرجوع إلى السنّة النبويّة التي صدرت عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ﴿ يُشَيِّنْ لَهُمْ أَلَدًى أَخْلَفُوا فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤].

وعلى هذا فالمعنى الوارد في هذا الحديث أو الأثر معنًى صحيحٌ يشهد له صريح الكتاب وصحيح السنّة. والله أعلم.

عَلَيْهِمْ إِيَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
 [العنكبوت: ٥١].

فنسأله - تعالى - كما أنعم علينا بالقرآن العظيم،
 والرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يجعل
 القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يعلمنا منه
 ما جهلنا، ويدكرنا منه ما نسينا، ويجعله حجة لنا لا علينا،
 وقائداً لنا إلى الجنة، إنه سميع مجيب.



الأمر بالقراءتين

لقد أمر الله تعالى نبيه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مفتتح نزول القرآن وعند بدء الوحي بقراءتين؛ فقال تعالى:

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وبما أن القرآن ليس فيه تكرار ولا ترادف، ولا تحتاج آياته الكريمة إلى استعمال المؤكدات، فإن كل كلمة من كلماته - وإن بدت مرادفة أو مماثلة لأختها - فإنها تشتمل على معنى آخر؛ إن لم تدل عليه بلفظها وبلاستعمال القرآني لها فإنها تدل عليه في سياقها^(١)

(١) المراد « بالسياق »: يعد « السياق » في القرآن هو المنتج للدلالة والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفاً جامعاً مانعاً، وكأنهم اعتبروه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليون قد أبدوا اهتماماً شديداً بدلالة السياق، فالسياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتيال غير المراد... وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقة وإضافية، فالحقيقة تابعة لقصد المتكلم وإرادته وهذه الدلالة لا تختلف، والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقرينته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك... راجع بدائع الفوائد لابن القيم (١٠ / ٩١٤) وإعلام الموقعين (١ / ٣٥٠، ٣٥١)، وقد أوردت ابتناد. رقية تفاصيل هامة في « دلالة السياق » وتقسيات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغني الباحث في هذا المجال عن مراجعته، فراجع ذلك في رسالتها القيمة « أثر =

وسباقها^(١) وموقعها، وذلك من دلائل إعجازه الذي تعالى به على كلام المخلوقين؛ ولذلك فإن صيغة الأمر بالقراءة - الذي جاء مرتين في هذه الآيات الخمس - لا تعني التوكيد أو الترادف أو التكرار كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين^(٢)، بل تدل على

= العرف في فهم النصوص: قضايا المرأة أنموذجاً « رسالة دكتوراه، طبع ونشر وتوزيع دار الفكر في دمشق عام (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) (ص ٢٦٠ - ٢٦٥). وكذلك رسالة صديقنا د. إبراهيم أصبان التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان « دلالة السياق في القرآن » لم تطبع طبعة عامة.

(١) أما السباق فهو لصيق جداً بالسياق، وكبير الأثر في إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والصور بما يسبقها، واعتبارها حلقة في سلسلة مترابطة. (٢) نحو القرطبي الذي اعتبر « اقرأ » الثانية توكيداً، وجعلها تمام الآية الأولى (١١٩/٢٠) والألوسي (١٨٠/٢٩) ويشير عدم ذكر فعل « اقرأ » الثانية لدى الطبري إلى اعتبارها مرادفاً أو توكيداً، فراجع (٢٥٣/٣٩) منه. أما الرازي فقد أعطى لكل من الفعلين معنى يخصه فقال - ناقلاً عن بعضهم: « اقرأ - أولاً - لنفسك. والثاني للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم. أو اقرأ في صلاتك والثاني خارج صلاتك » فانظر تفسيره (١٦/٣١). وقال البغوي في تفسيره « معالم التنزيل »: « اقرأ: كره تأكيداً، ثم استأنف.. وربك الأكرم » (٤٧٩/٨). أما ابن كثير فلم يذكر عن « اقرأ » الأولى والثانية شيئاً (٨/٤٥٩) ط. دار الشعب، القاهرة. وذهب ابن الجوزي في زاد المسير (١٧٦/٩) إلى أنها للتوكيد كذلك. وابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (١٣٣/٢٠) أورد ثلاثة أقوال: الثاني منها: « .. أن الباء في ﴿يَأْسِرُ رَيْكَ﴾ للمصاحبة، والمجورور في موضع الحال من ضمير « اقرأ » الثاني مقدماً على عامله للاختصاص، أي: اقرأ ما سيوحى إليك مصاحباً قراءتك اسم ربك، فالمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة لجلاله، ويكون هذا إثباتاً لوحدة الله بالألوهية... ». وهذا هو الأقرب لما ذهبنا إليه. وأما الطوسي فقد اعتبر الباء زائدة، ومفعول « اقرأ اسم ربك » وأما « اقرأ » الثانية فمفعولها المقدّر هو « القرآن » فانظر: التبيان (١٠/٣٧٩).

أمرين بقراءتين، لكل منهما معناها المراد بها، ولكل منهما خصائصها، ومجالها ومتعلقاتها، ومناهجها وكيفية ممارستها وميادينها.

يعضد هذا ويعززه أن الأمر بالقراءة في الآية الأولى اقترن

بـ « اسم ربك » وكانت صلة الموصول - الذي - هي الخلق

في: ﴿... الَّذِي خَلَقَ ۝۱ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ [العلق: ١، ٢]، فهي أمر

بتحصيل فعل القراءة وممارسته مع الاستعانة بالله - تعالى -

فهو ربك الذي يعلم أنك ﴿ مَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا

تَخُطُّهُ، يَمِينُكَ ۝﴾ [العنكبوت: ٤٨]؛ ولذلك فإنه « سيقروك فلا

تنسى » خلافاً لأي قارئ آخر معرض للنسيان والخطأ؛ فقرأ

باسمه هو، واستعد به من الشيطان الرجيم: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ

فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝﴾ [النحل: ٩٨].

والذي خلقتك من علق، وخلق النوع الإنساني - كله -

منه قادر على أن يخلق فيك فعل القراءة ولو لم تكن قارئاً

من قبل. كل ما عليك أن تقرأ ما سنوحيه إليك - وهو

القرآن - . والذي خلقتك ورعاك وأنشأك من علق، وخلق

كل شيء فقدرة تقديراً قادر على أن يعلمك القراءة كما علم

آدم الأسماء كلها، وكما علم أباك إبراهيم وسواه من الأنبياء

والرسل؛ فاقرأ باسمه وعلى اسمه ومعه.

وفي ذلك تنبيه - من بداية الأمر - على انفصاله - صلى

الله عليه وآله وسلم - عن قومه الذين كانوا يبدؤون أفعالهم

مستعنيين باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وكلها أوثان

اسمه - تعالى - ومعه، لهذا الوحي النازل الذي سيتتابع نزوله حتى يتم قرآنًا كريمًا مجيدًا مكنونًا مفصل الآيات، محكمًا مترابطًا متماسكًا متناسبًا متشابهًا، تتلوه يا محمد على الناس، وتبينه لهم ليتعلموا منه الحكمة والهداية والرشد؛ فتزكو نفوسهم، وتطهر حياتهم، ويهتدوا به في أداء مهام الاستخلاف، وفي القيام بواجب الائتمان وحق العمران، وحين ردّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأنه ليس بقارئ^(١) لا شك أنه فهم المطلوب، وهو قراءة ما سيملى عليه وهو لا يعرف القراءة والكتابة، وليس له من العلم ما يقرؤه؛ ولذلك فإنه تعالى قد ربط القراءة (باسم ربك)، فكأنه قال له: إنك لن تكون وحدك في أداء هذا الفعل الذي لا تعرفه، بل سيكون معك ربك الذي أعطاك الكثير وهو قادر على أن يعلمك كيفية أداء ما أمرك به، ويزيد على ذلك: كما علم آدم الأسماء كلها، وكما علم إبراهيم وموسى وعيسى وسواهم من النبيين والرسل - عليهم السلام - من قبلك، فاقراً باسمه

= (٣١/١٣، ١٤) ط. دار الفكر. وانظر: التحرير والتنوير (٢/٤٣٦) وذكر أن «الباء» للاستعانة أو المصاحبة أو بمعنى «على»، وذلك قريب مما ذكر الفخر. ومثله في روح المعاني للألوسي (١٧٩/٢٩) ط. مكتبة دار التراث - القاهرة بدون تاريخ. وقال الطباطبائي في الميزان: «إن الباء للملابسة» (٢٠/٣٢٣). (١) إشارة لحديث «بدء الوحي» الذي أخرجه البخاري في باب «كيف بدأ الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقول الله - جل ذكره -: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] الحديث رقم (٣، ٢).

واستعن به في القراءة يعنك ويصحبك ويكن معك فيها، وفي بيانها وتعليمها وإقامة الحجة بها على الناس.

وذكر الرب - جلّ شأنه - الإنسان، وخلقّه بالذات؛ ففيه طمأنة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بأنّ مَنْحَه القدرة على القراءة ليس بالأمر الصعب على ربّه الذي خلق كل شيء، وخلق الإنسان من علق، (بل هو عليه هين)، كما أنّ في ذكر الخلق تهيئةً لذهنه الرشيد ونفسه الشريفة - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لبيان النوع الثاني من القراءة.

القراءة الثانية:

ألا وهي قراءة الكون والنظر في الخلق، ومعرفة ما دَوّنته البشرية من فهم له ومن تجارب فيه بأقلامها، فهذه القراءة هي التي صاغ القرآن المجيد بحسبها (دليل الخلق ودليل الإبداع، والتكليف بالنظر العقليّ في الوجود، والنظر في آثار الأمم السابقة ومعرفة ما حدث لها).

بذلك تكون القراءة المأمور بها قراءتين: قراءة باسم الله في كتابه، وقراءة في الكون المخلوق، وكل ما يتعلق به من عالم الخلق والتشويُّ، بما في ذلك تراث الأمم الذي دَوّنته وآثارها، فبالقراءتين تُدرك الفروق بين الأمم التي استفادت بالوحي واتبعته واستنارت به، وبين الأمم التي تجاهلته، وتعاملت مع الطبيعة أو الكون - وحده - دون استنارة بهداية الوحي، أو أهملت الكون والتجارب البشرية عبر

التاريخ ودروسه، وقامت بقراءة الوحي المنزل على قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحجة الاكتفاء به وحده والاستغراق فيه. فمن أراد أن يقرأ الوحي بدقة وتدبر فإنه لا غنى له عن قراءة الكون وما فيه؛ وذلك بالنظر في خبرات الأمم السابقة وتجاربها، ومعرفة الحضارات الغابرة وكيف سادت ثم بادت أو اندثرت.

لقد اعتنى القرآن بذلك عناية فائقة، ولفت الأنظار إليه في سور عديدة، وآيات كثيرة؛ لما في ذلك من عبر ودروس وعظات تجعل السالف قادرًا على إفادة الخالف مهما طال الأمد فيما بينهما، وتجعل الخالف يرى نتائج أفعال من سبقوه؛ فيدرك أن أفعاله - أيضًا - سيكون لها من الآثار مثل ما لأفعال من سبقوه؛ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وفي ذلك تكريس لمبدأ « المسؤولية الفردية، والأثر الجماعي أو المجتمعي » فيتعلم الإنسان بذلك كيفية الانضباط في أفعاله وتصرفاته، ويتهياً عقله ونفسه لقبول مبدأ « الجزاء والعقاب والثواب »، ويتعلم النظر فيما يرث عن الآباء نظر الفاحص الناقد المعبر، فيتخلص من هيمنة مبدأ « الآبائية » وتقليدها ومتابعاتها على الحق وعلى الباطل، ويدرك كذلك أن للأمم التي خلت ما كسبت، ولنا ما نكسب، ولا يغني أحد عن أحد من الله شيئاً.

قراءة الكتابين:

هما - إذن - كتابان تجب قراءتهما - معاً - للخروج من

إِسَارِ الْأُمِّيَّةَ بِكُلِّ أَشْكَالِهَا وَمَعَانِيهَا: كِتَابٌ مَنَزَّلٌ مِثْلُ مَا مَعْجَزٌ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَكِتَابٌ مَخْلُوقٌ مَفْتُوحٌ وَهُوَ هَذَا الْخَلْقُ وَالْكَوْنُ وَالتَّجَارِبُ الْبَشَرِيَّةُ فِيهِ، وَمِنْهُ التَّعَامُلُ مَعَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الْخَلْقِ وَابْنٌ شَرْعِيٌّ لِلطَّبِيعَةِ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

القراءة إنسانية:

وهذه القراءة تكون ابتداءً من الإنسان، فهو الذي لا بد له من قراءتهما - معاً - لتوجد لديه المعرفة العمرانية الكاملة التي تمكّنه من الوفاء بالعهد والقيام بمهام الاستخلاف، وأداء حق الأمانة، والقيام بمقتضيات العمران، والنجاح في اختبار البلاء. وهي معرفة لا تقوم على التلقّي والتلقين وحدهما، بل على الأخذ عن الغير - أيضاً - من سابقين ولاحقين، بالمراجعة والمطالعة وقراءة الكتب وكتابتها وتناقل الخبرات والمعارف بين البشر وعدم الزهد في المعرفة من أي وعاء خرجت، والتعامل المنهجي معها.

وحدة البشرية:

وفي ذلك تنبيه على « وحدة البشرية » وضرورة الاستفادة اللاحق بميزات السابق من المعرفة والخبرات والتجارب، والتواصل معها، واستعمال القلم الذي علم الله به، وجعله وسيلة للمعرفة وتبادلها وإنمائها وتناقلها، ثم ما يمن الله - تعالى - به من معارف تنقدح بها العقول؛ من مستنبطات

ومخترعات وغير ذلك مما يندرج تحت قول الله تعالى:
﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]،

فهناك - إذن - مصدران للمعرفة الإنسانية - لن نمل
التأكيد على ترابطهما - يتضافران في توصيل الإنسان
إلى معارف الشهود الحضاري، والقيام بمهام العمران
والاستخلاف في هذا الكون، ولا بد للإنسان من الجمع
بينهما، وعدم الغفلة عن أيٍّ منهما، فيفهم القرآن العظيم
ومدلولاته بالخلق وبالوجود والسنن والقوانين الضابطة
لحركته وحركة ما فيه، ويفهم الكون ويهتدي في أداء مهام
الخلافة فيه والعمران، والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن
المجيد ونور هدايته.

ولا بد من قراءة المصدرين معاً، وتنفيذ الأمر بالقراءتين
سويّاً:

قراءة الوحي النازل المتمثل في الكتاب الكريم الذي حدّد
غاية الحق من الخلق وبيّن تلك السنن والقوانين الضابطة
لحركة الوجود، إضافة إلى ما اشتمل عليه من الشرعة
والمنهاج، والحقائق الأساسية التي تحتاجها البشرية.
وقراءة في الكون وآفاقه والنفس البشريّة وما يصلحها أو
يفسدها، والفترة وما ينميها، وما يطمس عليها.

أخطاء القراءات المنفردة وسلبياتها

إذا تبين هذا يتضح أنَّ القراءتين في الوحي وفي الكون فريضتان؛ لأنهما أمران إلهيان فيهما كل ما في الأمر الملزم من شروط وصفات، والجمع بينهما ضروريٌّ، إذ بدونه يقع الخل.

إهمال القراءة الأولى:

فمن تجاوز القراءة الأولى في الوحي النازل إلى النبيين، واستغرق استغراقاً كلياً في القراءة الثانية التي تمثل علم الكون أو معارف الطبيعة، منقطعة عن الله - تعالى - فقدَّ العلاقة بالله، وتجاهل الغيب، وانطلق بفلسفة إنسانية مستقلة وضعية منبئة عن الله، عوراء قاصرة في مصادرها، تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة بإطلاق، وتعتبر الخالق والغيب كله مجرد ماورائيات أو ميتافيزيقا يمكن تجاهلها أو تجاوزها. وإذا كانت هناك قوة غيبية قد مارست خلقاً أو إيجاداً فقد تكون مارسته بقوة الدفعة الأولى، ثم تناسته أو نسيتها ليستمر الكون بعد ذلك فاعلاً ومنفعلاً بشكل آليٍّ كما ذهب إلى ذلك أرسطو^(١) في القديم، ونيوتن^(٢) وغيره في الحديث.

(١) أرسطو: فيلسوف شهير ومعلم يوناني يعتبر من أهم فلاسفة اليونان القدماء، ترجم فلاسفة المسلمين تراثه الفلسفي، والمنطقي، وأعجب الكثيرين منهم، حتى إنهم قد لقبوه « بالمعلم الأول » (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م).

(٢) نيوتن، إسحاق: فيزيائي إنكليزي صاحب قانون الجاذبية العام وقوانين الحركة (١٦٤٢ - ١٧٢٧ م).

وحين يحلو لبعض هؤلاء المتفلسفين أن يتذكروا البارئ - جلّ شأنه - فإنّهم قد يتذكرونه بشكل حلوليّ يزعم أصحابه أنّ الله - تعالى - قد حلّ في قوى الطبيعة ذاتها، وذاب فيها، لينتهوا بعد ذلك إلى « الماديّة الجدليّة » التي أنكرت الخالق تماماً، وطرحت بدائل له من اتجاهات النمو عبر خصائص التطوّر الماديّ المعقّد؛ يشعر الإنسان باندماجه الكامل بالطبيعة باعتبارها كائناً طبيعياً.

وهنا يبدأ الإنسان الشعور بالغنى أو الاستغناء عن خالقه - جلّ شأنه -؛ لأنه لم يعد يرى غير الطبيعة أمامه، فهي كل شيء وهي وراء كل شيء وهو في ظاهر الأمر قادر على قهرها بالعلم، فلا يراها وهي مسخرة مقهورة بسنن الله تعالى، بل يراها كوناً مستقلاً؛ أي امتداداً غيبياً، وأذاك لا يشعر أن الله - تعالى - قد سخرها له، وأنّه الخالق له ولها، بل يرى الإنسان أنه الفاعل المبدع، المتعدّد القدرات، المسيطر على الطبيعة، المفجّر لكوا من ما فيها، وفي ذلك انحراف في الرؤية والتصور خطير؛ فالكون مهياً مسخر للإنسان، والإنسان مزود بالقدرات التمكينية الذهنية والعقلية والعلمية التي تمكنه من تسخير الكون، ليقوم بأمانة الاستخلاف، وحين يغفل الإنسان أو يعيش عن ذكر الرحمن، ولا يرى القدرة الإلهية في ذلك كله ظاهرة بهداية الوحي، يشده الشعور بالاستغناء، والإحساس بالقدرة والإبداع إلى أن يجعل من علاقته

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿ طه: ١٢٤ ﴾ .

وقد يُقنع الغافلون عن ذكر الرحمن أنفسهم بأن ما يحدث ضريبة طبيعيّة لازمة لا مناص - للراغبين في التمتع بالمعطيات الحضاريّة - من احتمالها ودفع قيمتها الفادحة. لكنّ ذلك خداع للنفس، وزخرف من القول؛ فالعمران الرّبّانيّ تحكمه قيم الحق والخير والجمال معاً، فإن وقعت بعض الأعراض الجانيّة أمكن احتواؤها وتلافي آثارها بتوفيق الله وهدايته؛ لأنّ العمران المهتدي لا ينفك عن « المرجعيّة الإلهيّة للكون ».

إهمال القراءة الثانية:

أما إهمال القراءة الثانية في الكون والطبيعة المسخرة، أي إهمال قراءة الوجود والكون والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعاً منبثّاً عن الوجود، فإنّه يؤدي إلى نفور من الدنيا، واستقذار لها ولما فيها، يشل طاقات الإنسان العمرانيّة والحضاريّة، ويعطلّه عن أداء مهامّ الخلافة والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير، ويعطل فكره، وينقص من قيمة فعله، بل قد يلغي إدراكه لفعله؛ فلا يرى الإنسان نفسه فاعلاً في شيء، ولا يرى لوجوده في الحياة معنًى عمرانيّاً، وكل هذه الأفكار منافية تماماً لمنهج القرآن العظيم.

كما أنّ تجاوز القراءة الثانية في الكون وإهمالها، أو عدم جمعها مع الأولى يؤدي إلى ظهور العجز الإنساني الحضاري، وتعطلّ طاقات الإنسان، وإلى خلط عجيب بين قضايا عالم الغيب وعالم الشهادة كما تقدم.

وقد يتوهم المقتصرون على القراءة الأولى - قراءة الوحي منفرداً - أن تنزيه الباري - جلّ شأنه - لا يتم إلا إذا أُلغيت قيمة الفعل الإنساني، ونُفيت إرادة الإنسان واختياره، واستُلب استلاباً لاهوتياً كهنوتياً من دوره، واقتنع بأنه مسيرٌ في كل شيء. وبذلك ينتهي دوره الاستخلافي العمراني، وتستحيل قدراته إلى عجز مطلق، وقد يستغرق في المحرمات معتذراً عن ذلك بأنه مسيرٌ، وتلك صفة من صفات أهل الشرك^(١).

والناظر في مقالات الإسلاميين في الماضي، وكتب الفرق الإسلامية، يجد العجبَ العُجاب في قضايا الخلط بين الفعل الإنساني والفعل الإلهي والإرادة الإنسانية وقضايا الاختيار والعلل والأسباب وسواها، ذلك الخلط الذي أدى إلى كثير من الغبش والاضطراب في النظام المعرفي الإسلامي.

إذن لا بد من الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي، وقراءة

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنَ الْذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بِأَسَنَّا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا خُرُوصٌ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

الوجود، وبناء العقل الإنساني بهما - معًا - لئلا يقع الإنسان
في أيّ من ذينك الطرفين الذميين.



منهجية القرآن المعرفية

من هنا كان ما سميناه بـ « منهجية القرآن المعرفية »^(١) دعامة أساسية للجمع بين القراءتين، وضرورة معرفية وحضارية، لا على المستوى الإسلامي وحده، بل على المستوى العالمي - كلاًه - للخروج من المأزق المعرفي^(٢) المعاصر والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة^(٣)؛ فبعد تكريس البعد المنهجي في التفكير واجه الفكر الغربي والحضارة الغربية مشكلة تحديد الصياغة المنهجية لذاتها، ومعرفتها صياغة تستند إلى تطور الغرب العلمي بكل جوانبه، فلم تصل في ذلك إلى ما يشفي العليل ويروي الغليل.

ولقد قامت الماركسيّة في محاولة إيجاد هذه الصياغة

(١) نعني بـ « منهجية القرآن المعرفية » المنهج الذي يقدمه لنا القرآن المجيد في شكل محددات وسن قوانين يمكن استنباطها من استقراء آيات الكتاب الكريم تلاوة وتدبراً وترتيباً وتنزيلاً وتفكيراً وتعقلاً وتذكراً، ثم التعامل مع هذه المحددات تعاملًا يسمح لنا بأن نجعل منها محدّدات تصديق وهيمنة، وضبط لسائر خطواتنا المعرفيّة، ومنها: تصحيح مسار المنهج العلمي، وإخراج فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية من مضايق النهايات التي تتوقف عندها الآن. وفي مقدمة هذه المحددات « الجمع بين القراءتين » و « الوحدة البنائية للقرآن »... الخ.

(٢) الذي يتردى فيه المنهج والمعرفة على حد سواء، فأزمة « المنهج » وفلسفة العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية « أصبحت تقضّ مضاجع العلماء.

(٣) فالأزمات الفكرية آلت إلى نوع من الاستفحال لم تعد المناهج البشرية قادرة على معالجته، كما لا يخفى على مراقب لما يجري في العالم المعاصر.

في إطار « المادية الجدلية »، وقد انهارت الماركسية بانهار الاتحاد السوفييتي قبل أن يجد الغرب البديل المعرفي والمنهجي لها؛ لتبقى الحضارة الغربيّة دون صياغة فلسفية بديلة، تضبط حركتها، وتستوعب مشكلات تطورها، وتجعلها قادرة على تقديم إجابات عن « الأسئلة النهائية » المعلقة؛ والتي يشيخ علماء اليوم بوجوههم عن مراجعتها. فبدأت الحضارة الغربيّة تلجأ إلى خلق الأزمات لتحافظ على توترها، لأنّه - أي هذا التوتر - صار من أهم وسائل حمايتها من التفكك.

أمّا أزمنا نحن العرب والمسلمين فهي أشد وأنكى، فنحن شركاء في الأزمة العالميّة من ناحية؛ لأن علاقتنا بها لم تعد علاقة برّانيّة أو هامشيّة - كما قد يتوهم البعض - فالحضارة المعاصرة قد نجحت من خلال غزوها الفكري والثقافي والمؤسسي أن تفرض علينا وعلى العالم كله منهجها ووعياها العلمي والمفاهيمي للوجود وللحركة الكونيّة، كما فرضت على الجميع رؤيتها للتاريخ والعلم والمعرفة والحضارة والثقافة والتقدم والتخلّف وغيرها، فما هي حقيقة « المنهجية القرآنية » التي نقترحها حلّاً لأزمنا المعرفية والفكرية وأزمة العالم معنا؟

محددات ومعالم:

تبرز محدّدات « منهجية القرآن المعرفية » وتتحقّق من

قراءة الكتابين: القرآن والكون، وتؤسّس على مقابلهما والكشف عن التكامل والتفاعل بينهما، وإبراز المنهجية في البحث والاكتشاف انطلاقاً منهما:

الكتاب الأول: هو كتاب الوحي المقروء؛ ونعني به «القرآن»؛ لأنه وحده الكتاب الكوني الذي يعادل الوجود الكوني وحركته ويستوعبهما بأبعاده الكونية.

والكتاب الثاني: هو كتاب الكون المتحرك الذي يتضمن ظواهر الوجود كافة.

فالقرآن العظيم والكون البديع كلاهما يدل على الآخر، ويرشد إليه، ويقود إلى قواعده وسننه، فالقرآن يقود إلى الكون ويمارس دوره في الهداية فيه، ويوظفه بوجوه عديدة لتسخير مكوناته، ولتوضيح قضاياها، وتأييد دعاواه، والكون - أيضاً - يقود إلى القرآن ليسقط أسئلته عليه، ويستعين به لإرشاد الإنسان إلى كيفية التعامل معه، واستثمار تسخيرهِ ومعرفة هذا وإدراكه والعمل بمقتضاه هو ما أطلقنا عليه «الجمع بين القراءتين»: قراءة تبدو غيبية تنشأ في إطار الوحي وتنطلق باتجاه الكون. وقراءة موضوعية تنطلق من الكون وعناصره باتجاه الوحي؛ فقراءة الوحي بمثابة تنزّل من الكليّ إلى الجزئيّ، فتدرك بقدر ما تتيحه القدرات البشرية النسبيّة من الفهم لتنزلات الكليّ وكيفيّاتها. وقراءة الكون تقدم القضايا والمسائل والأسئلة الجزئيّة وترفعها إلى سُدة

الوحي؛ ليهتدي الإنسان القارئ في الاثنتين إلى الإجابات
السليمة من المصدر الذي يهدي للتي هي أقوم. وتبدو
للإنسان القارئ - آنذاك - جدلية العلاقة بين المصدرين:
الوحي والكون، أو علاقة « الفهم التكاملي المتبادل »
والجدل والتفاعل بينهما بأوضح ما تكون.



دور قراءة السنة

هنا يبدو دور قراءة السنة والسيرة في كليتهما ضرورياً، وتكون قراءة الكون بمثابة تطلّع وعروج من الجزئيّ باتجاه الكليّ المتمثل بالوحي، وتطبيقات رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - له فيقرأ ذلك كله وفق قدرات البشر النسبيّة على فهم الظواهر، فلا يقع الفصام المزعوم بين معطيات الوحي ونتائج المعرفة الموضوعيّة، إذا فهمت السنّة والسيرة فهماً دقيقاً في هذا الإطار.

وإضافة إلى فهم السنّة والسيرة في كليتهما، وجمعهما مع القرآن الكريم في الطريق إلى « الجمع بين القراءتين »، نحتاج إلى أن ندرك أن « ... القرآن قد نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ﴿ ... وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، فنزوله كان على القلب؛ ولذلك نُهي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يحرك لسانه به بادئ ذي بدء: ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ﴿١١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ، ﴿ [القيامة: ١٦ - ١٨]، وما ينزل على القلب فإنه ينزل ويراد له الفهم والتدبر والاستيعاب والاستقرار فيه؛ ولذلك فإن التالي للقرآن المجيد إذا أراد فهم ما يقرأ، وإدراك معانيه، ومس مراد

الحق منه فعلية أن ينزله على قلبه، ويدرك معانيه ببصيرته. وعلى التالي الذي يريد أن يبلغ في تلاوته مستوى « حق التلاوة » أن يدخل إلى رحاب القرآن وهو على يقين من أنه سوف يجد فيه كل ما يريد إذا نزل على قلبه وتلاه حق التلاوة، ورتلّه ترتيلاً، وتدبره وتعقله وتفكر فيما فيه وتذكره.

ومن قرأ سورة من القرآن، أو نجماً من نجومه، أو آية من آياته فقد فتح لبصيرته نافذة الفرقان على آفاقه الرحبة الواسعة. أمّا مَنْ قرأه، ووقف معه بكلّيته وفي إطار وحدته البنائية، من حيث هو واحد كل أو مجموع كان في حقه فرقاناً.

والفرقان معنًى جليلٌ واسع يفرق الإنسان به بين الخير والشر، والحق والباطل، والصواب والخطأ؛ فتكون لدى القارئ التالي المتدبر قدرة أو ملكة أو حاسة تمكنه من التمييز في ذلك - كله - وتقييم أقواله وأفعاله وحركاته وخطراته وأفكاره ونواياه وجلّ تصرفاته بذلك الفرقان. وعندما يحدث للإنسان ذلك يُقال له: « استفت قلبك وإن أفثاك المفتون وأفثوك »، فالقرآن يكون بمثابة « النموذج المعرفي الكلي » للإنسان القارئ التالي المتدبر له في كليته. في هذا الإطار نستطيع أن نفهم تشديد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أصحابه في أول الأمر بأن لا يكتبوا عنه شيئاً إلا القرآن. وتأكيدهم عليهم بأن مَنْ كتب شيئاً غير القرآن فعليه

أن يمحوه^(١).

(١) إنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقتصر على الأمر بعدم تدوين الأحاديث والأخبار والسنن، بل جاوز - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك إلى النهي الواضح الصريح عن كتابتها، بل والأمر بمحو ما كتب منها. وكذلك فعل أصحابه من بعده، وبخاصة الشيخان أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - حيث شدّدوا في النهي عن التحديث. ومن جاءهم بحديث فإنها كانا يصران على أن يأتي بمن يعزز ما روى ويشهد بأنّه سمع ذلك معه من في رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مما جعل جبهة الصحابة يعرضون عن التحديث والرواية؛ ولذلك فإنّا نجد كثيرًا من الأمور المتكرّرة حين رويت جاءت متنوعة، مختلفة الروايات، مع كثرة تكرارها، وإمكان نقلها بالتواتر مثل ألفاظ الأذان والإقامة والبسملة والحيعة: « حيّ على الصلاة » أو « حيّ على خير العمل ». والإقبال الذي حصل بعد الأمر بجمع السنن من عبد العزيز سنة (٨٣ هـ) ثم من ابنه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله سنة (٩٩ هـ) إنّما حصل لأن عمر بن عبد العزيز رأى في جمع السنن ووضعها بين أيدي المسلمين بديلاً عن الاختلاف في الفقه، فإن عنصر الإلزام بالمروى عنه - عليه الصلاة والسلام - أقوى من الالتزام بفقه الفقهاء. وذلك أكثر تأثيرًا في جمع الكلمة، وتقليل الاختلاف. أما لماذا نهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن تدوين أي شيء غير القرآن، وتبعه أصحابه الشيخان في ذلك، فذلك لكي يبين عقول الناس ونفوسهم وقلوبهم أولاً بالقرآن - وحده - فيصبح القرآن مستقرًا فيها، عنه تنبثق نواذجهم المعرفيّة، ومنه ينطلقون في بناء مناهجهم العلميّة، فيصبحون قادرين على قياس كل مصدر كليّ أو جزئيّ، وكل نوع من أنواع المعرفة إليه، ومحاكمته إلى الرؤية القرآنيّة ونقده وتنقيته بمقتضاها وفقًا لها. إضافة إلى تقرير وترسيخ « حاكميّة القرآن » في قلوبهم وعقولهم. ولم يكن السبب ما ذكره البعض من « خوف الاشتباه والتداخل بين القرآن والأحاديث المروية »، فذلك أمر مستبعد جدًّا أن يقع فيه العرب وهم أهل البلاغة والفصاحة الذين يدركون الفجوة الواسعة بين آيات الكتاب الكريم وأي شيء سواه بما في ذلك أحاديث أفصح من نطق بالضاد - عليه الصلاة والسلام - ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

= عليه وآله وسلم - لا ينطق عن الهوى، فما دام قد فعل ذلك ونهى عن كتابة غير القرآن، فذلك يعني أنه لم يفعل ذلك إلا لحكمة بالغة علمها الله، وأوحاها إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - أو توقيف مباشر، وإلا فالعرب لا يخفى عليهم الفرق بين اللفظ القرآني وسواه، مهما كانت درجة بلاغته وفصاحته.

كما أن القرآن المجيد يحوي أصول السنن، وتستدعي آياته السنن ولا عكس. وقد نص الإمام الشافعي على ذلك بقوله: في الفقرة ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، وفي ٤٨؛ حيث توج ما قاله في تلك الفقرات بقوله: فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها. (مقدمة الرسالة ١٧ - ٢٠).

كما أن العلماء بعد الأجيال الثلاثة قد تساهلوا، خاصة في « جيل الرواية » بنقل السنن بالمعنى، لأن القرآن يصدق عليها ويهيمن مثل تصديقه وهيمنته على تراث النبيين من قبل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كافة فليس هناك كبير خوف من تصرف بعض الرواة بالألفاظ ونقلها بمقتضى فهمهم لها، فإن وراءها مصفاتيْن دقيقتين: أولاهما: أن يكون للمروي أصل في القرآن وفي اللغة. والثانية: أن يكون مما يصدق القرآن عليه ويهيمن، وبذلك يمكن تصحيح ما قد يخطئ فيه فهم الراوي، سواء أكان ذلك بسبب مستوى قدرته على الفهم والاستيعاب، أم بسبب لغوي، أم بسبب القراءة لمعاني الحديث وأسباب وروده أم أي مؤثر آخر.

والكتابة وسيلة توثيق دقيقة ولا شك - ولا يضير العرب الذين فضلوا المحفوظ على المقروء ذلك - وهي أدق من الحفظ في الذاكرة، وإذا طرأ على الكتابة تصحيف أو ما إليه، فذلك مما يمكن تداركه وتصحيحه، وليس كذلك الخطأ في الذاكرة إذا استقر، وجرى تداوله شفاهاً.

وهذا الذي نقوله يوضح أن النهي النبوي عن كتابة السنن لم يكن لبيان عدم حجيتها كما يذهب إلى ذلك المستشرقون والمنازعون في الاحتجاج بالسنن، ومنهم أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقباً لا يستحقونه فيسمون أنفسهم « بالقرآنيين »، وما هم « بقرآنيين » فلو أنهم كانوا « قرآنيين » لما وسعهم نفى =

= « حجية السنة » الثابتة بصريح القرآن المجيد. ولأدركوا أن النزاع الذي نشب في جيل الرواية واشتد في جيل الفقه لم يكن نزاعاً في « ذات الحجة » إذ الحجة أمر معلوم من الدين بالضرورة، ولكن النزاع وقع في حجية « الإخبار بالسنة » الذي هو الإسناد « فالإخبار بالسنة » هو ما يمكن أن يوصف بالقطع والظن، والحجة وعدمها، ويرد - بمقتضى الحكم عليه وبنقد المتن - الحديث أو يقبل. أما السنة الثابت صدورها عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - فلا نزاع في حجيتها بين المؤمنين.

كما أن ما قرناه مستفاد من المنهج الذي نزل القرآن الكريم به، حيث تنزل القرآن - كما هو معروف - نجومًا استغرق نزولها اثنين وعشرين عامًا وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا من حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، وقال - جل شأنه - في ذلك: ﴿ وَفَرَأَيْنَا فَتَنَّهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ [الاسراء: ١٠٦].

وقد اعترض المشركون على هذا المنهج في التنزيل، وسجل القرآن اعتراضهم على هذا، وناقشهم فيه وبين الحكمة التي خفيت عليهم في تنزيله بذلك المنهج، فقال - جل شأنه -: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وللحكمة ذاتها: - تثبيت الأفئدة بالقرآن - أراد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن تشغل عقول وقلوب المسلمين بالقرآن وحده - حتى تثبت به عقولهم وقلوبهم، وتستقر به نفوسهم، وتحالط بشاشته أفئدتهم وضائرتهم، ولا يزاحم آياته في انفعالهم به أي شيء آخر. وبذلك كان القرآن لذلك الرعيل عقلاً يفكرون به، ونفساً يحبون بها، ووجداناً تتشكل به عواطفهم ومشاعرهم، وأعيناً يصرون بها كل ما حولهم، ومنهجاً ضابطاً لحركات العقول والنفوس والتصرفات يعصم الإنسان عن الوقوع في الخطأ فيها، وإذا مس الشيطان شيئاً من ذلك تذكروا فإذا هم مبصرون للحقيقة أو لوجه الصواب فيها.

والأحاديث والآثار التي وردت في النهي عن كتابة السنن ومناقشتها من وجهة نظر الأشاعرة تجدها في كتاب شيخنا عبد الغني عبد الخالق « حجية السنة » =

الجمع بين القراءتين ومداخله

هنا سنحاول أن نمهد لبيان كيفية « الجمع بين القراءتين »، وذلك ببيان بعض المداخل المهمة لقراءة كل من القرآن والكون، نستعين بها على منهج التعامل مع الجمع بينهما، ولنبدأ بمداخل قراءة القرآن:

١ - تنزيل القارئ للقرآن على قلبه:

إنّ تنزيل القارئ للقرآن على قلبه - بالشكل الذي أوضحنا - مدخل أساس من مداخل فهمه، والفقه فيه، ولعله أهم مداخل « الجمع بين القراءتين »، فالله - تبارك وتعالى - قال: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]، وهناك مداخل أخرى للدخول إلى عالم القرآن المجيد، منها:

= (ص ٣٩٠ وما بعدها) وكذلك في كتاب د. محمد عجاج الخطيب « السّنة قبل التدوين » الباب الرابع من الكتاب « متى دون الحديث؟ » (ص ٢٩٣ - ٣٨١) حيث جمع المؤلف - جزاه الله خيراً - ما يتعلق بالتدوين وناقش مختلف الآراء والأقوال الواردة في ذلك. وقد تتفق مع المؤلف في جل ما تناوله وقد نختلف في بعض الاستنتاجات معه، لكن يبقى ما أورده مما لا يستغني الباحثون في هذا المجال عنه.

٢ - مدخل الإيمان بـ « الوحدة البنائية للقرآن المجيد »:

وقراءته مع استصحاب هذا المدخل. و « الوحدة البنائية » تجعل التالي المرتل المتدبر يطوف في رحاب القرآن ناظرًا في آياته كلها، باحثًا عن جميع الروابط وشبكات العلاقات بينها ليدرك ما يقرأ، ويفهم ما يتلو^(١).

٣ - مدخل الانطلاق من الإيمان بـ « وحدة السورة »:

وهو مدخل لا يختلف كثيرًا عن مدخل « الوحدة البنائية »، لكن التركيز فيه يكون على سورة واحدة يتخذها القارئ المتدرب بمثابة وحدة متميزة. وهنا ينطلق في تدبره باتجاه البحث عن عمودها، والأعمدة أو الأوتاد الساندة. ونعني بذلك: أن لكل سورة موضوعًا أساسًا، تأتي آياتها - كلها - لتوضيحه وبيانه، وتجلية ما يتعلق به. وتكون الموضوعات الأخرى دائرة حول ذلك الموضوع الأساس، تعززه، وتزيد في بيانه وتوضيحه، فتكون بمثابة الأوتاد المساندة لعمود البيت ودعامته الكبرى. وقد كتب فيه « الإصلاحي »^(٢)

(١) لمعرفة تفاصيل المراد « بالوحدة البنائية »، وكيفية استعمالها باعتبارها محدّدًا منهاجيًا ونشأتها وسيرورتها أفردناها بدراسة مستقلة يستحسن الرجوع إليها لفهم هذا المدخل بشكل مناسب. وقد نشرت في مجلة الكلمة عدد (٤٣) ربيع (٢٠٠٤م).

(٢) راجع كتب الأستاذ عبد الحميد الفراهي الإصلاحي - يرحمه الله - سلسلة دراسات في التأويل وعلوم القرآن، منها حلقة خصصها للحديث عن « عمود السورة » أكد فيها: أن كل سورة لها عمود لابد للقارئ المتدبر من الكشف عنه =

دراسة جيدة تحتاج إلى مَنْ يبني عليها، ويتوسع فيها، ونَبّه إلى ذلك الشيخ أمين الخولي^(١).

٤ - مدخل القيم العليا، وهي: « التوحيد والتزكية والعمران »^(٢):

فهذه القيم الثلاث بلغت من الأهمية مستوى يمكن من القول بأنها محاور القرآن المجيد الأساسية التي تدور سوره وآياته وكلماته - كلها - حولها، وتشترك في العمل على تكريسها وتعزيزها.

* ف « التوحيد » حق الله - تعالى - على عباده، أن يؤمنوا بواحديته ووحدانيته، وتفرد في ذاته وصفاته وأفعاله. ومعظم سور القرآن وجُلُّ آياته دارت حول التوحيد لأهميته القصوى، إذ عليه يتوقف كل ما عداه، فهو جوهر العقيدة، وركن الإيمان وعموده.

* ثم « التزكية »؛ وهي المؤهل الأساس والشامل الذي يجعل الإنسان قادرًا على القيام بمهام الاستخلاف، وأداء

=ليدرك معانيها، وما اشتملت عليه من موضوعات. وقد نشرت هذه الدراسات المكتبة الإصلاحية في عليكر في الهند. وأعادت نشر بعضها «دار الغرب الإسلامي». (١) على ما في «مسؤولية التأويل» (ص ١٣٩) وما بعدها للدكتور مصطفى ناصف.

(٢) «التوحيد التزكية العمران»: (انظر: العلواني، طه جابر، التوحيد ضمن كتاب: المنهجية الإسلامية (القاهرة: دار السلام، ٢٠١٢م)؛ والتصوف والسلام، قيد الطبع).

الأمانة والوفاء بعهده تعالى وإعمار الأرض ووراثتها في الدنيا:
﴿ أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]،
وهي التي تهيبء الإنسان لوراثه الفردوس في الآخرة:
﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١].

* ثم « العمران »؛ وهو المهمة التي أوكلت للإنسان بعهد
الاستخلاف، وهو الغاية التي سخر الله الطبيعة - كلها -
للإنسان من أجل تحقيقها، والقيام بحققها.

ونحن نستمد من سنن الكون وقوانينه - ومنها التسخير
والعمران - ونستقي كثيرًا من الأدلة على وجود الله - تبارك
وتعالى - ووحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله، وبتدبر تلك
السنن والقوانين نستنبط ما يتناسب والفطرة التي فطرنا الله
- تعالى - عليها، فنبنئ من أدلة « الخلق والإبداع والرعاية
والتدبير والتمانع وما إليها » ما يجعلنا قادرين على الاستجابة
لنداء الفطرة التي فطرنا عليها، والاستماع والاستجابة
إلى نداءات ودعوات المرسلين، فيتظافر القرآن والرسول
- صلى الله عليه وآله وسلم - ومعه سائر المرسلين من
خارج، والفطرة الإنسانية من داخل لتحقيق الهداية والتزكية،
وبناء العمران، والذي هو انعكاس للهداية والتزكية وروح
العبادة على الكون والطبيعة المسخرة.

وبذلك يتحول الإنسان إلى قائد لمسيرة التسييح التي
يمارسها كل شيء في الكون بالتوجيه التلقائي والذاتي، عدا

الإنسان الذي يمارس ذلك بحريته واختياره: ﴿وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نفَقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكيف نفقه ذلك التسبيح؟ نفقهه بالتدبر والتفكر والتعقل والتذكر في خلق السموات والأرض: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

حين نمارس قراءة القرآن بهذه المداخل سوف تقودنا بشكل مباشر إلى النظر إلى ما خلفها وما ترتبط به ليظهر لنا المدخل الخامس من مداخل القراءة وهو:

٥ - مدخل الولوج إلى رحاب القرآن من خلال العلاقات بين الله - تبارك وتعالى - والإنسان والكون المسخر:

فحين نقول: «الله» فإننا نستحضر بذلك علم الغيب كله، وحين نقول: «الإنسان» فإننا ننبه بذلك إلى كل ما يتعلق به؛ ابتداءً من «عالم العهد الأول»^(١) أو «عالم الذر» مروراً بعالم الخلق والإبراز للوجود والأمر بالتصدي للمهمة، وانتهاءً بعالم المآل إلى الجنة أو النار. وحين نقول: «الكون» فإننا

(١) تطلق تسمية عالم العهد الأول على لحظة مخاطبة الله تعالى لأرواح ذرية بني آدم، المشار إليها بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٠٠﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

نعني به عالم الخلق أو الأشياء والسنن والقوانين الموجهة، والمسيرة له، وتنوع الخلق فيه؛ من حيوان وبحار وأنهار وشمس وقمر وموجودات ومنها الإنسان نفسه.

وذلك يعني أننا نبحث عن العلاقات بين الله - تعالى - والإنسان والكون، وكيفية حدوث الفعل والانفعال أو ما يسمّى بـ « التفاعل » في كل ما قصّه الله - تبارك وتعالى - في القرآن المجيد، فنكتسب بذلك وعياً وقدرة نتمكن بهما من تدبّر القرآن وتلاوته وترتيله، لتتعقل به أوضاعنا وما نعيشه في مرحلتنا التي لا تعدو أن تكون حلقة من حلقات تاريخ أسرتنا البشرية الممتدة. ومدخل القيم العليا والعلاقات بين الخالق والمخلوق سوف يكونان خير رفيق لنا حين الطواف في آيات القرآن المجيد، والله أعلم.

٦ - مدخل « التصنيف الموضوعي »:

وذلك بعد أن نداوم على قراءة القرآن، ونتدبر أهم الموضوعات التفصيلية التي تناولها، ونمرّن أنفسنا على تحديد موضوعات مثل: الإيمان والكفر والشرك والنفاق والحق والباطل والصلاة والعلم والإصلاح والإفساد وما إليها، ثم نبدأ بجمع الآيات التي تتعلق - في نظرنا - بذلك الموضوع، باستقراءها وتتبعها في آيات القرآن - كلّها - دون غفلة عن « وحدة القرآن البنائية » التي تستلزم أن نستحضر القرآن - كلّه - في دراسة أيّ موضوع؛ ثم نبدأ عمليات التدبّر

والتأمل، ونحذف ونضيف، إلى أن نطمئن إلى أن ما جمعناه من الآيات هو كل ما يتعلق بذلك الموضوع. على أن لا نتوقف عن التأمل والتدبر فيها والحذف والإضافة، فبعد فترة سنجد أنفسنا مشدودين إلى القرآن - كله - في كليته ووحدته البنائية، فيزداد فهمنا ووعينا به عموماً، وهنا يمكن أن نستشهد بما نقل عن الإمام الشافعي - يرحمه الله -، فقد عمل الشافعي على جمع آيات الأحكام في القرآن المجيد، وله كتاب يحمل اسم « أحكام القرآن » جمعه البيهقي، وآيات الأحكام معدودة لدى الفقهاء، فهي في تقديرات جمهورهم لا تتجاوز خمسمائة آية، وبعضهم لا يجاوزون بها أربعين ومائتي آية.

لكن الإمام الشافعي بعد أن ركز على هذا النوع من الآيات وجد أنه من المتعذر حصر الأحكام فيها، فأشار إلى أن في الأمثال أحكاماً كثيرة^(١)، بل يمكن القول إن في

(١) تشتمل الأمثال القرآنية على أحكام وتشريعات، كما تشتمل على خلاصات التجارب والخبرات، وإن جاءت على غير ما عهد في آيات الأحكام والتشريع من أساليب. ولهذا فقد عد الإمام الشافعي الأمثال القرآنية مما يجب على المجتهد معرفته، فقال وهو يبيِّن مؤهلات المجتهد العلميَّة: « ... ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المثبتة لاجتناب معصيته ... » فجعلها بذلك جزءاً مما يجب على المجتهد معرفته من « علوم القرآن » كما في الإتيقان (١٣١/٢). وذكر الماوردي: « ... أن من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه... » على ما في البرهان للزركشي (٤٨٦/١)، والإتيقان (١٣١/٢).

ونقل السيوطي عن الشيخ عز الدين قوله: « إنها ضرب الله الأمثال في القرآن =

القصص القرآني أحكاماً، فالحكم لا تستطيع استنباطه والإمام بجوانبه كلها دون معرفة سياقه وعلاقاته كلها، ولقد نبهنا إلى تفاصيل مفيدة - إن شاء الله - في بحثنا في « الوحدة البنائية للقرآن المجيد »، فارجع إليها فيه واربط بين ذلك وهذا المدخل.

٧ - مدخل البحث في المناسبات:

والمناسبات أو التناسب بين الآيات والصور علم دقيق وهام حاوله كثير من المتقدمين فقاربه بعضهم، وأعلن بعضهم العجز عنه، فتجاوزه إلى المداخل الأيسر.

ويقول الإمام الرازي (ت ٦٠٦ هـ): «... مَنْ تأمل لطائف نظم السور، وبديع ترتيبها علم أنّ القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو - أيضاً - معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته... »، ويقول أيضاً: « أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط... »^(١).

= تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في الثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم، أو نحوه، فإنه يدلُّ على الأحكام ». الإتيان (١٣١ / ٢). وقال ابن خلدّ الراهمرمزي: «... أمثال التنزيل التي وعد الله ﷻ بها وأوعد وأحل وحرّم، وربّى وخوف، وقرع بها المشركين، وجعلها موعظة وتذكيراً، ودلّ على قدرته مشاهدةً وعباناً، وعاجلاً وآجلاً. ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم... » على ما في مقدمة أمثال الحديث للراهمرمزي، وراجع الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض (ص ٢٦٦).

(١) راجع « الوحدة البنائية » مصدر سابق.

ويقول القاضي أبو بكر ابن العربي؛ من علماء القرن السادس (ت ٥٤٣هـ): «... ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم...»^(١).

ويقول برهان الدين البقاعي صاحب أشهر كتاب في الموضوع « نظم الدرر في بيان تناسب الآيات والسور »: « إنَّ السورة وإن تعددت قضاياها في كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويتراعى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. ولا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية الواحدة... »؛ يريد القضية المنطقية؛ وهي عبارة عن جملة واحدة.

فحين نعمد إلى القراءة المتدبرة بهذا المدخل فإنَّ من الممكن التدرب عليه بأن نأخذ سورة من تلك السور - التي تعددت نجومها، وتنوعت موضوعاتها، وكثرت معانيها - ثم نتتبع آياتها آية بعد آية، ومجموعة بعد أخرى، ثم نتفكر في بدايتها ومسيرتها وانسيابها حتى بلغت خاتمتها. ونعود من الخاتمة إلى البداية، وننظر في العلاقات بين اسمها وتسويرها لتكون سورة مستقلة، ثم علاقتها بما قبلها

(١) المرجع نفسه.

وما بعدها، وعندها سنكتشف شبكة من العلاقات بينها تجعلنا نشعر أنها نزلت حين نزلت، وكأنها نجم واحد، أو أنها نزلت مرة واحدة.

هذه المداخل هي مداخل مقترحة تمثل حصيلة معايشة للقرآن، ومحاولة للاقترب منه، وليست - بحال من الأحوال - نهاية المداخل المطلوبة لمقاربة القرآن المجيد، وهي قابلة للإنماء والإضافة، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.



مداخل قراءة الكون

للكون مداخل للقراءة، كما كان للوحي مداخل للقراءة.
ومداخل « قراءة الكون » متعددة كذلك، منها:

١ - مدخل الخلق:

هذا المدخل يقتضي الإيمان التام واليقين الخالص بأن
الكون - كله - مخلوق لله - تعالى - عن إرادته صدر،
وبكلماته تكوّن، وبتقديره تشيئاً؛ فصار شيئاً مذكوراً. وأنّه
- سبحانه - ما خلقه إلا بالحق، وأنّ كل شيء فيه بقدر
ومقدار، وتقدير محدّد، وأنه سائر إلى غاية معيّنة، فلا مجال
للقول بالمصادفة أو العبث أو العدم أو اللاغاية!! وأنّ كل
شيء فيه له علّة، كما أنّ له غاية.

والقيام بمهمة الاستخلاف، والوفاء بالعهد الإلهي،
والقيام بحق الأمانة، والنجاح في اختبار الابتلاء، والخروج
من عهدة التكليف، كل أولئك أمور يتوقف القيام بها على
إدراك هذه الأمور، والوعي بها وعياً يجعل منها آيات للحق
- تبارك وتعالى - موصّلة إليه، منبّهة إلى صفات الكمال
التي يتصف بها، موجّهة للإيمان به، وإدراك عظمتها، وفهم
حسن تدبيره وحكمته وإعجاز تقديره.

والقرآن المجيد - وهو يدعونا للنظر في الخلق والطبيعة -
لا يرشح نفسه مصدرًا للعلم الطبيعي، ولكنه يوجه إلى ذلك

لأخذ بيد الإنسان للوصول إلى معرفة الخالق وإدراك وحدانيته، واليقين باتصافه بكل صفات الكمال، وتنزُّهه عن كل صفات النقصان، وفي ذلك - كَلَّه - بناء لطاقات الإنسان الإدراكية وقابليته العقلية والفكرية، واستعداداته المعرفية، وتحريك لسائر قوى الوعي فيه، وتأهيله للمهام الكبرى التي أوكلت إليه. وإذا كان الوحي يعينه على تحقيق التزكية بكونها ذات أولوية كبرى بعد التوحيد وبه ومعه، فإنَّ النظر في الخلق والطبيعة يعينه على كسب الأهلية لتحقيق العمران، والنظر في الخلق والطبيعة، وهي مسخرة خاضعة لله - تعالى - وبسننه وقوانينه تتحرك أو يتشكَّل كل شيء فيها، فليس الإنسان خاضعاً لها، وليس له أن يغتر بتسخيرها له فيستكبر، ويقول: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨]، أو يحسب نفسه مقهوراً لها فيشرك، أو قاهراً لها بنفسه فيلحد، ولكنه يراها مسخرة لله خاضعة له، وأن ربه وربها واحد أوكل إلى هذا الإنسان مهمة الخلافة فيها، واستثمارها وإعمارها.

ولهذا المدخل الهام مداخل فرعية يرشد الوحي إليها، منها:

* معرفة مبدأ الخلق، وكيفية تكوين الموجودات وأهم وظائفها: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

[الأنبياء: ٣٠] ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٥، ١٦] كما يربط بينه وبينها: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. وهذا المدخل يؤدي - أيضًا - إلى:

* كشف النظام الدقيق للكون وغائيّة الخلق: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْغُيُوبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا لَآ تَخَذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧].

والإنسان مطالب أن يتفكر في خلق السموات والأرض ليدرك ذلك - كله - ويكشف عما في الكون والخلق من دقة ونظام، وسنن حاكمة، وغايات وعِلل، ويتبين وحدانية الله - تعالى - ويبني تصوراتهِ عن الكون والحياة والإنسان انطلاقاً من ذلك؛ فيتمكن من تحقيق العمران، وإلا كانت الحياة الدنيا بالنسبة إليه لهوًّا ولعباً وعبثاً ينتزه الخالق عنه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

كما يكتشف الإنسان بتدبر هذا المدخل أن هذا النظام الدقيق المحكم لا يعني أن الخلق خالد، أو أنه مستمر دائم لا نهاية له، بل هو محكوم بأجل مسمى، فدقة نظامه،

والبدائع التي اشتمل عليها، واتساعه وعظمته لن تمنحه صفة الخلود: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وكونه سائرًا إلى نهاية وأجل مسمى لا يزيل عنه صفة الحق، الذي خلق به وقام عليه. ولأنَّ الإنسان جزء من الخلق وابن شرعيٍّ للطبيعة فلا ينبغي له أن يغفل عن أنه يجري عليه ما يجري عليها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [غافر: ٥٦، ٥٧]. وهم إن علموا شيئاً وهم في حالة كفر بالوحي أو انفصال عنه فإنما: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

والتفكر في هذا المدخل وتدبره بعناية يؤدي بالإنسان - كذلك - إلى إدراك ذلك التلازم العجيب الذي أوجده الخالق البارئ المصور - جلَّ شأنه وعزَّت قدرته - بين العلم والإيمان، وأنَّ العلم حين ينفصل عن الإيمان يكون أحياناً ضرره أكبر من نفعه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

لقد عمل القرآن المجيد على بناء أمتن وأقوى وأفضل العلاقات بين الإنسان والعالم المخلوق لله، والمسخر له؛ لئلا يقع بينهما تنازُد أو تصارع، أو علاقات مضطربة فتضيع حكم كثيرة قد لا تؤثر في تسخير الطبيعة أو الكون الخاضع لسنن لا تبدل لها، ولكنها تحرم الإنسان من تلك المشاعر السامية - في الحد الأدنى - وهي المشاعر التي تجعله يحسُّ بحبِّ واحترام بيئته، وما فيها ومنَّ فيها، فيحقق السلام النفسي والذاتي، ويحقق السلام مع كل ما حوله، ويدرك قدر نعم الله التي لا تحصى عليه حين سخر له كل ما حوله، وعلمه كيف يستفيد به، ويستخلف فيه ويعمره، وقيم الحق والعدل فيه، ويقوده في قافلة العبادة والتسبيح للذي خلق سبحانه.

فالإنسان لا يحتاج لقهر الطبيعة والخلق، وكيف يحتاج لذلك والكل مسخر له بتسخير الله تعالى، وهو الذي مكَّنه من ذلك كله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [البجائية: ١٣].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فالإنسان مطالب باستثمار ذلك كله والاستفادة به، وإن هو لم يفعل فإنه يكون قد أخلَّ بوظيفته في الكون، فالعمران من العبادة، وأي جزء من أجزاء الطبيعة يُهمَل فذلك يعني أنه ميت أو مقتول: ﴿وَأَيُّهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ

أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ [يس: ٣٣]؛ ولذلك وضع الفقهاء باباً في الفقه أطلقوا عليه « إحياء الموات »؛ أي الأراضي المهملة التي لا تزرع ولا يبنى عليها ولا تستثمر. وقد أقام القرآن المجيد هذه العلاقات الودّية بين الإنسان وعناصر الكون كلها، ولم يقصر ذلك على البيئة المحيطة به - وحدها - أو البيئة المباشرة، بل تعدّى ذلك إلى الشمس والقمر والنجوم: ﴿... وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

والقرآن ينبّه هذا الإنسان المستخلف المسؤول عن العمران، والتعبّد لله - تعالى - به إلى أنّ عليه أن يستعمل سائر إمكاناته الذاتية، والطاقات التي زوّده الله - تعالى - بها لبناء علاقاته بالكون بالشكل المناسب: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، فالإنسان في حاجة ماسّة وضروورية إلى هذه الأدوات والقوى؛ ولكي يشحذ هذه القوى، ويضاعف طاقاتها هو في حاجة إلى النظر في الأرض والكون، فيكون النفع بينهما متبادلاً، فالنظر والمشاهدة والتدبر والتفكير والتعقل تُمكن الإنسان من حسن استثمار الكون، وينمي طاقاته. ونظره في الكون يعود على

هذه الوسائل والأدوات بطاقات مضاعفة، وتعطيها عن ذلك يصيبها بالكسل والفتور، أو يؤدي بها إلى الانحراف.

٢ - مدخل العناية:

هذا المدخل من مداخل قراءة الكون لا يبعد كثيرًا عن « مدخل الخلق »، وإذا كان مدخل الخلق يقودنا إلى النظر في الخلق كيف « بدأ الله الخلق »، وإدراك الغاية منه وسيرورته وما سينتهي إليه، فإن مدخل « العناية » يؤدي بنا إلى النظر في نظام الكون الدقيق، واكتشاف بدائع الصنع الإلهي فيه، والقوانين والسنن التي لا تبدل لها، ويوضح في الوقت نفسه الرعاية الإلهية للإنسان بهذه العناية.

وهذا النوع من النظر يربّي في الإنسان العقل، ويدرّبه على النظر العقليّ في كل ما حوله، ويعلمه كيف يدرك المقاصد والكليّات والحكم والغايات من مداركها وبوسائلها، فيؤمن بربه، ويثق في نفسه، ويدرك أنّ الكون ليس مركّبًا من عناصر مشتّتة، أو أجزاء منفصلة، بل يراها في ترابطها الدقيق وانتظامها المتناسك، فذلك هو الذي يعود على الإنسان بـ « الرؤية الكلية » للكون والإنسان والحياة. ولقد أجهد الفلاسفة والمدارس الفلسفية أنفسهم عبر التاريخ، وما يزال الكثيرون منهم يسعون إلى معرفة المنهج أو الكيفية التي يمكن بمقتضاها إرجاع سائر عناصر الكون إلى أصل واحد، والوصول إلى منهج أو نظام معرفيّ أو نموذج معرفيّ يمكن

من تفسير الظواهر الكونية والطبيعية به بشكل عام شامل، إذ لا شك أن كثيرًا من الظواهر الطبيعية ما يزال العلماء الماديون - خاصة - يتخبطون في تفسيرها، ويقلّبون أفئدتهم وأبصارهم فيها، فلا تعود عليهم بالكثير، ولعل السبب الأول لذلك يكمن في عدم التفات هؤلاء العلماء الماديين إلى ما وراء تلك الظواهر من نظام دقيق، وعناية إلهية فائقة، فتتحصّر أنظارهم في الظواهر الحسّية، التي تجعلهم مقيدّين بـ « الجدل بين عناصر الطبيعة المادية »^(١).

أمّا لطف التدبير ووحدة نظامه فإنه لا يُدرَك إذا لم يؤمن العالم الباحث بوجود المدبّر الواحد وعنايته وحكمته، ومطلق قدرته، فذلك هو الذي يعصم الباحث من التيه، والوقوع في

(١) من إشكاليّات الحضارة الغربيّة الحديثة: رؤيتها ومفهومها عن العقل؛ إذ ترى أن العقل دومًا يتنافى مع القلب، والدين واللّه. وهو تعريف يخضع لثنائية نحن في غنى عنها. وقد وضع القرآن مفهومًا للعقل نستطيع من خلاله معرفة العقل وإعطائه مجاله الذي يعمل فيه دون تناقض أو ثنائية، فالعقل في المفهوم القرآني ليس شيئًا خارجًا عن القلب، ولا يتنافى معه ولا مع الإيمان، فالقرآن يطرح هذا التكامل من خلال آياته الوافية. انظر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ثُمَّ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وانظر أيضًا قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، إلى غير ذلك من آيات القرآن الكريم، فجعل القرآن العقل جزءًا من القلب، في تناسق بديع بين مكونات الإنسان من عقل وقلب وروح؛ نتحاشى بهذا المفهوم للعقل أية ثنائيات وتضاد بين أجزاء الإنسان وعقله وقلبه وعلمه وإيمانه باللّه تعالى.

الخطأ. ويضرب الله - تبارك وتعالى - للبشرية مثلاً بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ حيث نظر في مجموعة من الظواهر والموجودات الكونية باحثاً متأملاً ليحدد موقع كل من تلك الظواهر منه من ناحية، ويحدد لنفسه موقفاً منها يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

[الأنعام: ٧٦-٧٩]، فسيّدنا إبراهيم كانت لديه « إشكالية أو أزمة » برزت وهو يشاهد قومه يعبدون أصناماً لهم يصنعها أبوه ويبيعها إليهم، فأراد لتلك الأزمة المؤرقة حلاً، توجه بالسؤال إلى أبيه « آزر » صانع الأصنام، فقال له ولقومه: ﴿ ... مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ » [الشعراء: ٧٠-٧٣]، فلم يكن لديهم جواب شافٍ أو مقنع غير الحجة المفلوكة المكررة التي لا تقنع أحداً؛ تقليد الآباء: ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ » [الشعراء: ٧٤]، وهنا يتجه إبراهيم - بتوفيق من الله - إلى النظر في ملكوت السموات والأرض ليقوده إلى الدواء الشافي من تلك الأزمة الإشكالية.

لقد جزأ إبراهيم سؤال الأزمة لديه إلى أجزاء عديدة أو أسئلة فرعية متعددة؛ ففي الكواكب نظر في ظاهرتي الأفول - الغياب والنقص - بعد البزوغ، والإشعاع بالنور، وأدرك أن الأفول والنقص والغياب لا يمكن أن يتصف الإله بشيء منها، إذ كيف يدبر مخلوقاته وهو بهذه الصفات؟ ومن ذا الذي يقوم بالناية بها إذا غاب؟ فكانت تلك أسئلته في ملكوت السموات، حتى إذا التفت إلى ملكوت الأرض ساءل قومه وأباه بعد توجيه سؤاله الأساسي والمحوري: ﴿... مَا تَعْبُدُونَ ۖ﴾ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عِكْفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفُ عَنِّي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٧٠ - ٨٩].

هنا، وبعد أن أجهد نفسه في النظر العقلي في ملكوت السموات والأرض: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥]؛ تبرأ من آلهة أبيه وقومه - كلّها - ووجه وجهه للذي فطر السموات والأرض، مائلاً - عن كل ما كان متوافراً من الأديان - إلى « الإسلام »، فأسلم وجهه لله رب العالمين، فبلغ بذلك توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

ومدخل العناية إن عرفه الباحثون حق المعرفة، وتبينوا معالم النظام البديع المعجز الذي يسيّر الله - تعالى - الكون بمقتضاه؛ فإنّ ذلك سوف يوجد فيهم أقوى الدوافع للبحث الجاد المتواصل للكشف عن الكون، والبحث في الطبيعة، وبلوغ العلاقات والقوانين التي يقوم عليها النظام الكوني.

والباحث المؤمن حين يعجز عن اكتشاف حلقة من حلقات ذلك النظام في ظاهرة من الظواهر فإنه لن يتهم المنهج العلمي الذي استخدمه، ولن ينفي وجود النظام لمجرد أنّه لم يضع يده عليه في تلك الظاهرة، فهو يدرك أنّ « عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود »؛ ولذلك فإنّ الباحث المؤمن سوف يعاود البحث مرة أخرى، وثانية وثالثة، وينسب القصور إلى نفسه، أو طريقته في استعمال المنهج، ولن يلجأ إلى القول بالاحتمالية، أو المصادفة، أو نفي النظام.

٣ - مدخل النظر في الواقع الموضوعي الخارجي:

إنّ للأشياء وجوداً ذهنياً ووجوداً واقعياً، فالوجود الذهنيُّ

عبارة عن تلك الصور الذهنية التي ترسمها المخيلة الإنسانية للأشياء، فإذا خرجنا بها إلى الواقع فإمّا أن نجده مطابقاً لما ارتسم في أذهاننا، فيصدق الواقع الخارجي « الصورة الذهنية »، فيتضح لنا آنذاك أنّ لتلك الصورة الذهنية تحققاً عينياً. ولو أنّ الواقع الخارجي لم يصادق على تلك الصورة الذهنية، فذلك يعني أن تلك الصورة غير دقيقة، أو هي مجرد صورة متخيّلة لا سند لها من الواقع: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ففضية الجمع بين القراءتين مسألة منهجية في المعرفة وتقود إلى نتيجة حضارية، فالذي يجمع بين القراءتين لا يستغني عن الله؛ لأنّه يدرك دوماً افتقاره لله ﷻ فلا يستبد ولا يبتغي علواً في الأرض ولا فساداً، ولا يطغى، ولا يلحد ولا يدمر الحياة والأحياء، ولا يعيث في الأرض فساداً.



كيفية الجمع بين القراءتين

إنّ المدخل الأساس للجمع بين القراءتين يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين الناظم المنهجي لآيات القرآن، الذي أعطى القرآن « وحدته البنائية » وإعجاز « نظمه »، وبين السنن والقوانين الماثلة في الوجود، والمهيمنة على حركته؛ للكشف عن الناظم المنهجي الذي يربط بينهما. فالقرآن وحي إلهي نتعلل ونتفهم به هذا الوجود؛ انطلاقاً من أن القرآن مطلق ومحيط وشامل. وبقدر ما تتسع معرفتنا للاثنين معاً بقدر ما تتكون لدينا القدرة على « الجمع بين القراءتين »، واكتشاف التداخل المنهجي بين منهجي الوحي والكون. فمنهجية القرآن موازية لمنهجية الوجود، ولا ينبغي الاقتصار على قول ذلك نظرياً أو إدراجه في دائرة « فضائل القرآن »، ولكن ينبغي اكتشاف ذلك تطبيقياً. فالقول النظري قد لا يتجاوز حالة تبشير بفرضية قد تكون غير صحيحة أو مما يمكن الطعن فيه؛ ولهذا يكون التحدي الأول والأهم للمسلم المعاصر هو الكشف عن التداخل المنهجي بالجمع بين القراءتين؛ أي بين الوحي الإلهي والعلوم الطبيعية والإنسانية القائمة على السنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان.

أمّا الحديث عن عظمة القرآن وفضائله، فإن القرآن عظيم

حقاً ومعجز فعلاً وذو فضائل تجل عن الحصر، وقد كتب الناس عن عظمتة وإعجازه وفضائله آلاف الصفحات، بل ملايينها، لكن تلك الكتابات لم تستطع أن تكشف للناس عن منهجيته المستوعبة للكون وحركته، والمتجاوزة لها، والقادرة على إقامته على قواعد الهدى ودين الحق. كما لم تؤدّ إلى الكشف عن التداخل المنهجي بين قراءة القرآن في وحدته البنائية وقراءة الكون في وحدته القائمة على سننه وقوانينه. فقد بقيت آيات كريمة كثيرة ومقولات دينية عديدة عرضة لتأويلات شتى، وفي كثير من تلك التأويلات تبدو الإسقاطات الإسرائيلية ونحوها واضحة^(١). كذلك بقيت

(١) الإسرائيليات قد تداخلت مع جوانب كثيرة، من أبرزها التفسير، وقد جرت محاولات كثيرة ولا تزال تُجري لفصل تلك الإسرائيليات عن تراثنا التفسيري، كتب في ذلك الشيخ محمد حسين الذهبي وأبو شهبه ورمزي نعناعة وآخرون، كما أعدت دراسات جامعية في «إسرائيليات تفسير الطبري» وغيره. ولم تفلح تلك المحاولات كثيراً في وضع خطوط فاصلة بين الإسرائيليات وغيرها في التراث، وذلك لأن التراث الإسرائيلي كان يشكل جزءاً أساسياً من الثقافة الشفوية في جزيرة العرب عند البعثة، ولأن كثيراً من علماء بني إسرائيل قد أسلموا ودخلت معهم ثقافتهم التي كانوا يحملونها، وانتقلت إلى المعارف الإسلامية، ودونت في عصر التدوين على أنها جزء من تلك المعارف. وقد أورد ابن خلدون في مقدمته تعليلاً وتحليلاً جيداً لأسباب ذلك التداخل وطبيعته من المفيد إirاده. يقول ابن خلدون: «إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوفوا إلى معرفة شيء من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإننا يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة =

في المعارف الإنسانية والاجتماعية الحديثة، بل وفي العلوم

=الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم! مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتألت التفسير من المنقولات عنهم. وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين كانوا يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنه بُعد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلفت بالقبول من يومئذ».

كما لخص محمد عزة دروزة - رحمه الله - روايات كثيرة عن مختلف المصادر العربية القديمة التي عززتها روايات الآخرين ومصادرهم، أن جماعات من بني إسرائيل قد جاؤوا إلى مختلف المناطق الحجازية من أمد بعيد واستقر أكثرهم في يثرب في ناحيتها على طريق الشام، وكان بعض أفرادهم يترددون على مكة أو يقيمون فيها. وقد تعلموا اللغة العربية واشتركوا في حياة العرب وتقاليدهم وصار لهم فيهم أنصار وحلفاء ومحبون ومراكز قوى، وأنهم نشروا عن أنفسهم علماً واسعاً في الأديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون والدين السماوي الذي يدينون به والكتاب المنسوب إلى الله ورسله الذي يتداولونه، وكانوا يزهون بذلك على العرب ويفخرون ويستفتحون عليهم، بل ويدلسون في كل ذلك عليهم، ويظهرون غروراً وخيلاء وتبجحاً بما عندهم من العلم وما يصدر عنهم من معارف ولو كان فيها زيف وتدليس، ويزعمون أنهم أولياء الله وأحباؤه وأصحاب الخطوة لديه، وأن ذلك قد أثر على العرب تأثيراً غير يسير فكان لليهود بسببه مكانة ممتازة صاروا بها مرشدين وقضاة، وأنه كان لهم كيان طائفي ديني ولهم معابدهم ومدارسهم وأخبارهم وربانيهم. وكان لهؤلاء تأثير كبير على أبناء الطائفة كما كانوا قضاتهم، وكان منهم من يتخذ منصبه ونفوذه وسيلة إلى ابتزاز المال بالباطل، وكانوا يتعاطون السحر والشعوذة أيضاً، وكانوا جاليات كثيرة العدد، منهم بل أكثرهم استقروا في أحياء خاصة لهم في يثرب المدينة وحصّنها بالقللاع والحصون والأسوار، ومنهم من سكن =

الطبيعية المعاصرة كذلك أبعاد غائبة، وأسئلة كثيرة حيرى لا تجد من مدارس تلك العلوم المختلفة إجابات شافية؛ لأنها لم تكتشف ذلك التداخل المنهجي بين القراءتين إلا في حدود جزئية تمثلت في محاولات انتقائية يغلب على بعضها التلفيق الذي يجعلها تبدو مفتعلة إلى حد كبير؛ كتلك المحاولات التي تبدو فيما عرف مؤخراً بـ « الإعجاز العلمي »^(١).

= في مزارع وقرى خارج المدينة منها القريب ومنها البعيد وحصّنها كذلك بالقلاع والحصون والأسوار، وكانوا يقتنون مختلف أنواع السلاح وبكميات كبيرة من سيوف ورمح وقسيّ ونبال وحرا ب ودروع. ولم يكونوا متّحدين في كيان سياسي وعسكري وديني، بل كانوا فرقاً وأحزاباً، وكانوا على خلاف ونزاع وعداء. وكان في المدينة قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج، وكان بينهما نزاع وعداء وحروب. فكان فريق من اليهود متحالفًا مع إحداهما وفريق آخر مع الأخرى، وكان كل فريق يقاتل مع حليفه الفريق الآخر مع حليفه من اليهود، ومع ذلك فقد كان طابع الذلة والمسكنة والجبن والغربة والفرع يطبعهم جميعاً، فكانت محالفتهم مع العرب بالإضافة إلى حصونهم وقلاعهم وسلاحهم وسيلتهم إلى الاستمسك والبقاء، وكانوا لأجل ذلك يحرصون على أن يبقى النزاع والعداء قائماً بين القبيلتين العربيتين، وكانت لهم حقول ومزارع وبساتين وأموال وأملاك، وكانوا يشتغلون بالتجارة والصناعة والربا، فكان كثير منهم نتيجة لذلك أغنياء وأصحاب ثروات، وكان ذلك يساعدهم على النفوذ والتأثير بالعرب أيضاً.

راجع مقدمة ابن خلدون (٩٣٥ / ٣)، وراجع « القرآن والمبشرون »، وكتابنا « إشكالية الردة » (٣٤ - ٣٦) ط. دار الشروق الدولية بالقاهرة.

(١) الإعجاز العلمي كان قد بدأه - فيما نعلم - الإمام فخر الدين الرازي بتفسيره « مفاتيح الغيب » أو التفسير الكبير، ولكنه شاع - مؤخراً - وانتشر بين المتأخرين وقامت على أساس من خدمته مؤسسات كثيرة، وكتب فيه كاتبون، ومع إقرارنا بفوائده في تعزيز إيمان بعض من استولت عليهم ثقافة العصر، =

فتأكيدنا الدائم على ضرورة وجوب « الجمع بين القراءتين »، واعتبار ذلك شرطاً مسبقاً للخروج من الأزمة الفكرية والمعرفية في مستوياتها العالمية والمحلية يحمل توكيداً على وجوب الالتفات إلى ذلك الارتباط المنهجي بين القرآن والكون والإنسان؛ فالقرآن ضم قواعد « الوحي الإلهي » الذي جاء به المرسلون كافة. والكون مجال كلمات الله ومظهر إرادته ومشيبته، والإنسان مستخلف للاهتداء بالوحي في إعمار الكون، وبذلك تكتمل حلقات التصور الإنساني، وتظهر سائر مقوماته، وتبرز علاقة الغيب بالطبيعة والإنسان، ويتخلص الإنسان من مأساة الفصام بين اللاهوت

= وصار إسقاط ثقافة العصر على القرآن، وتعزيز موقعه بها مريحاً لهم، ومخرجاً لهم من الحيرة والتردد بين القرآن وثقافة العصر فإننا نربأ بالقرآن أن يدور حول ثقافة العصر القلقة المترددة، وعلومها المتذبذبة بين اليقينية والنسبية والاحتالية إن قصارى ما يقدمه ما يسمى « بالإعجاز العلمي » أن يجعل القرآن مساوياً لثقافة العصر يحاول الحصول على تأييدها ومباركتها، وذلك سوف يخدم ثقافة العصر، ويروج لها بين المسلمين أكثر مما يخدم القرآن المجيد نفسه، وذلك يصادم القول « بإطلاقية القرآن » ويسقط عليه نسبية واحتمالية ثقافة العصر. وإذا كان العلم قد تحول في قرن واحد أو أكثر قليلاً من اليقينية إلى الاحتمالية والنسبية، ومن السببية الصلدة الجامدة إلى السببية السائلة فما الذي سوف يحدث للقرآن وصفاته إن نحن أسقطنا ثقافة العصر عليه؟!

أما « الجمع بين القراءتين » و « منهجية القرآن المعرفية » فإنها على النقيض من ذلك تجعل القرآن هو المصدق على ثقافة العصر وعلومه ومناهجه، وهو الذي يقرر صلاحية الصالح منها، أو عدم صلاحيته، وهو المهيمن عليها، والحاكم فيها. والله أعلم.

والناسوت والملكوت، أو بين الدنيا والآخرة، أو بين التنزيل الإلهي والفلسفات الوضعية البشرية، وما جرّه ويجره ذلك الفصام النكد من مشكلات.

إن هذه المهمة لا يستطيع النهوض بها إلا من أوتي القرآن وحظاً من العلوم والمعارف يكون كافياً لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والكون والإنسان.

ولذلك أرسيت قواعد « المنهج القرآني » على الدعائم التالية:

١ - إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية القائمة على أركان العقيدة المحددة المحصورة كما جاء بها القرآن، ومقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم المنبثق عنها؛ ليتضح ما يمكن اعتباره « النظام المعرفي الإسلامي » القادر على الإجابة عن « الأسئلة الكلية النهائية » ومعالجة ما أسماه الفلاسفة المتقدمون بـ « العقدة الكبرى » دون تجاوز شيء منها، وبناء قدرة ذاتية على النقد المعرفي الذي يمكن من الاستيعاب والتجاوز بشكل منهجي منضبط، في الوقت نفسه يعطي القدرة على التوليد المعرفي والمنهجي، وبه يتحقق الإبداع والتفسير المعرفي الذي لا يقوم على الإقناع والخطابة بل على المعرفة المنهجية التامة.

٢ - إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المناهج الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ وذلك بعرضها على « المنهجية المعرفية القرآنية » وتعديلها بنورها وعلى هدى منها، فإنَّ أضرارًا بالغة قد أصابت هذه المنهجية نتيجة القراءات المفردة والتجزئية التي جعلت القرآن عضين، وقرأت الوجود والإنسان في معزل عنه قديمًا وحديثًا؛ وليتمكن العقل المسلم من تجاوز تلك الأمراض الفكرية التي شلَّت فاعليته؛ كالاضطراب في فهم علاقة الغيب بالشهادة، وعلاقة النقل والعقل، وعلاقة الأسباب بالمسببات وغير ذلك من أمور.

٣ - بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد ومعرفة مداخل قراءته من خلال هذه الرؤية المنهجية التحليلية، باعتبار القرآن مصدرًا منشأً للمنهج والعقيدة والشرعة والمعرفة، ومحددًا لمقومات الشهود الحضاري والعمراني، وقد يقتضي ذلك إعادة بناء وتركيب نظريات علوم القرآن المطلوبة لهذا الغرض، وتجاوز بعض الموروث في هذا المجال من تلك المعارف التي أدت دورها في خدمة النصِّ القرآني، واستفاد بها العلماء في مراحل تأسيسها التاريخية. وقد بدأت الحاجة تبرز إلى البناء عليها تلبية لحاجات الأمة في حاضرها ومستقبلها، فالإنسان العربي قد فهم القرآن - ضمن خصائص تكوينه الأولى - عقليًا

ونفسياً ولغوياً، وكانت تلك الخصائص التكوينية بسيطة في بداياتها ومحدودة اجتماعياً وفكرياً، يغلب أن تتم في إطار لغويٍّ ومعطيات نقلية شفوية تجعل الاهتمام ينصب على صحة النقل، وتوثيق الرواية بالطرق المتعارف عليها لديه، والتي كانت تمثل أرقى المعارف في طرق التوثيق في عصره، وحين بدأ التدوين الرسمي للعلوم والمعارف النقلية الإسلامية التي دارت حول النص القرآني والحديث النبوي في القرن الهجري الثاني برزت تلك الخصائص فيما كان قد دوّن من علوم ومعارف، كما ظهرت إلى جانبها خصائص العقلية البلاغية واللغوية العربية في تلك المرحلة وما تقتضيه من اتجاه نحو التجزئة باتجاه دراسة الجمل والتراكيب؛ مع ملاحظة المفردات ابتداءً، فلا غرابة أن يعرف « التفسير » وهو أهم علوم الفهم بأنه: « معرفة أحوال كلمات القرآن وألفاظه »، فتلك كانت هي المنهجية السائدة؛ ولذلك اعتبر الفهم الذي تولد عنها مقبولاً وكافياً في تلك المرحلة والمراحل التي تلتها.

أمّا في المرحلة العالمية الإنسانية الراهنة، حيث تسيطر « عقلية الإدراك الإنساني المنهجي » للأمر، والبحث عن العلاقات النازمة لها بطرق تحليلية ونقدية توظف الأطر والقواعد العلمية المختلفة، وتربطها بموضوعات حضارية متشعبة وعلاقات متنوعة، فلا بد من إعادة النظر في كيفية

إنماء وتجديد علوم وسائل فهم النص وخدمته وقراءته قراءة الجمع مع الكون، وإدراك أبعاد التداخل المنهجي بين القرآن والكون، وتنقية كثير من جوانب التفسير والتأويل والتراث المتعلق بتلك المراحل؛ لإزالة آثار الربط الوثيق بالنسبي من خلال الإسقاطات الإسرائيلية وغيرها، والربط التام بأسباب النزول والمناسبات.

ولكي تظهر وجوه التحدي بالقرآن العظيم، وجوانب إعجازه المؤثرة في هذا العصر ينبغي أن يضاف إليها - الآن - البعد الاجتماعي والمنهجي ليتحقق التحدي الدائم به، ويبرز إعجازه الذي يعتبر الدليل المنهجي الأول على إطلاقيته، وعدم نسيته، وبطبيعة الحال فإننا نتجاوز « الإعجاز العلمي » لأنّه لا يعدّو أن يكون إسقاطاً لثقافة العصر على القرآن، وذلك ليس من مقصودنا.

٤ - بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة - أيضاً - من خلال تلك الرؤية المنهجية، وباعتبار السنّة النبويّة المطهّرة مصدرًا مبيّنًا للقرآن المجيد وتطبيقًا لما جاء به، يحمل تفاصيل وتطبيقات المنهج والشرعة، وقواعد المعرفة ودعائم ومقومات الشهود الحضاريّ والعمرانيّ، فقد كانت مرحلة النبوة وعصر الصحابة مرحلة تعتمد على الاتصال المباشر برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومتابعته والتأسي به فيما يقول أو يفعل: « خذوا عني

من أقوال وأفعال وتقاريرات رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتلقينا كل تلك التفاصيل التي تجعل سائر الأجيال التالية لجيل التلقي قادرة على أن تتأسى به، وتستخلص من ذلك منهجًا لاتباع القرآن وهي تتابع حركته اليومية - عليه الصلاة والسلام - في غدوّه ورواحه وسلمه وحره وتعليمه وقضائه وقيادته وفتواه وممارساته الإنسانية، بطريقة تكشف عن أسلوبه أو سنته - عليه الصلاة والسلام - أو منهجه في التعامل مع الواقع، وتكشف - إضافة إلى ذلك - عن خصائص الواقع الذي كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يتعامل معه، ويمارس حياته فيه، ويتحرك في مجالاته، وهذا الواقع - لا شك - مغاير للواقع الذي نحياه في تركيبته وقضياه ومشكلاته وعلاقات أهله مغايرة نوعيّة، إضافة إلى المغايرة الكميّة التي نلمسها جميعًا.

لقد كان - عليه الصلاة والسلام - في سيرته وسنته يمثل تجسيدًا للربط بين المنهج القرآني والواقع المعيش؛ ولذلك فإنّ من الصعب فهم الكثير من القضايا في معزل عن فهم ذلك الواقع الذي كان - عليه الصلاة والسلام - يتحرك فيه، ويجاهد ويجتهد لتغييره وإصلاحه، ويكون ذلك الفهم بدراسة واقع عصر النبوة وما فيه إضافة إلى أسباب ورود الأحاديث والأحداث التي ترتبط بها.

وهذه الأحاديث قد يحولها المختلفون إلى أقوال جزئيّة

وبعيدة عن سياقها؛ فلجأ - بعد ذلك - مَنْ لجأ إلى التأويل الباطني والتفسير الرمزي والإشاري باعتباره مخرجاً من التقيد بحرفية المأثور أو بجزئياته، واستسهل البعض ردّ الأحاديث، ولكن بعض التأويلات ما زادت ذلك الأمر إلا اضطراباً. وثارَت بعد ذلك مشكلات « حجية السّنة » جملةً أو حجية بعض أنواعها، وغير ذلك من قضايا ما نزال نعاني منها ومن الآثار الفكرية التي تخلفت عنها، ولو أنه تم الكشف عن المنهج القرآني للتعامل مع ما قاله أو فعله أو أقره الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - لأمكن أن ينضبط التعامل مع ذلك المنقول - كله - ولرَدّت الجزئيات إلى الكليات، ولفهمت في إطار المنهج سائر القضايا الجزئية؛ لأنّ المنهج كفيل بتبيين المقاصد واتّضاح الغايات.

إنّ العقلية المعاصرة عقلية تبحث - باستمرار - عن النظم الموضوعي للأمور، وتحاول النفاذ إلى المنهجية الكاملة في الأبعاد المختلفة، هذه المنهجية تعتمد على التحليل المنهجي والتفكيك والنقد والتفسير، وتجعلها الوسائل الأساسية والإطار الموضوعي للحركة الفكرية في تعاملها مع النصوص والقضايا الكونية والمحلية، وبهذه المنهجية يمكن النفاذ إلى مقاصد القرآن المجيد ومحاورة قيمه العليا وكلياته، وتفهم السنن النبوية فهمًا منهجيًا يحمي من الوقوع في إطار ماضوية سكونية أو تأويلات

باطنيّة، أو محاولات تجديدية تعمل على إحداث تعديلات أو تأويلات لتطبيقات الماضي لتعيد إنتاجها في الحاضر، فكأنّها تعبير عن الماضي في ثوب جديد.

٥ - إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامي وقراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية، ومقايسته إلى منهج التصديق والهيمنة القرآنية لنخرج من الدوائر الثلاث السائدة التي تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا في الوقت الحاضر: دائرة الرفض المطلق له، ودائرة القبول المطلق، ودائرة الانتقاء اللامنهجي؛ فهذه الدوائر الثلاث لا تمكننا من التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث، كما لا تساعدنا في تحقيق القطيعة مع ما يجب إحداث القطيعة معه من ذلك.

٦ - بناء منهج للتعامل مع التراث الإنساني المعاصر - أيضًا - أو ما يُعرف بـ «التراث الغربي» أو «الفكر الغربي» - يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحالية التي تخلّفت عن أطر ومحاولات المقاربات، ثم المقارنات، ثم المقابلات والمعارضات لتنتهي بالرفض المطلق بروح مستعيلة متجاهلة، أو القبول المطلق بروح مستلبة تمامًا أو الانتقاء العشوائي المتحيّز له أو عليه.

فهذه الخطوات أو المحاور أو المهام الست هي التي يمكن أن نطلق عليها خطوات باتجاه بناء «المنهج التوحيدي للمعرفة»؛ وذلك لأننا نجد أنفسنا لأول مرة أمام وضعيّة

عالمية تعمل على توظيف المعارف والعلوم واكتشافات العلوم ومنجزاتها توظيفاً يفصم العلاقة بين الخالق والكون والإنسان، وذلك بطرح تصوّرات حول الوجود، يبدو بعضها نقيضاً للتصور الدينيّ عامّة ولرؤيتنا المعرفيّة الإسلاميّة خاصة، وسواء أكان ذلك حقيقة واقعة أم لم يكن فإنّ تجاوزه لن يكون بأنّ نتقي من مقولاتنا التراثيّة ونقاربها مع ما يتوافق مع تلك التصورات لنقول: إنّها لدينا من قبل، أو نرفضها وندمغها بالكفر، فمنطلقنا ومنذ الأساس تجاه العلوم الكونية ليس منطلقاً لاهوتياً أو كهنوتياً.

وليس مطلوباً منا تقليد غيرنا، فإنّ تجربتهم في مواجهة العلم ومنجزاته تختلف عن تجربتنا، فلو كان القرآن لاهوتاً لما جازت فيه إلا قراءة البعد الواحد؛ أي القراءة الأولى فقط، وقد أمرنا بقراءتين، فنحن لم نصارع العلم، ولم نقابله بالرفض وقتل العلماء؛ لأننا ندرك أن الوحي في الكون الكتابي هو الوحي الذي في الكون الطبيعي، ولكل منهما أسلوب ومنهج قراءة يخصّه، فإذا ظهرت انحرافات أُسندت إلى العلم، فالمطلوب منا هو: تطهير العلم منها، وإذا ظهرت انحرافات في التفسير والتأويل، فيجب حماية النص منها. وهذا أساس «الجمع بين القراءتين». إذ لم يكن الدين يواجه - من قبل - سوى فكر عقلي وضعيّ مجرد، ولم يكن مسلحاً بالعلم التطبيقي المعاصر ونتائجه التي أدّت إلى

قيام مذهبيات تجاوزت الوضعية التقليدية، فالمطلوب منا - كما أمرنا - استرجاع أو استرداد العلم من هذه المذهبيات وتطهيره وإعادة توظيفه، وتنقية علوم ومعارف خدمة النص مما ألحق بها أو أُضيف إليها؛ لتستقيم القراءة وتتحقق إمكانات « الجمع بين القراءتين ».



المهمة قرآنية وكذلك عالمية

هذه المهمة - المتمثلة في بيان وإبراز منهجية القرآن المعرفية - مهمة عالمية؛ تهتمُّ العالم كله، ويحتاجها العالم كله، وإن تصوّرها البعض مهمة في إطار الخصوصية الجغرافية والبشرية الإسلامية، فنحن - في عصرنا هذا - جزء متفاعل مع عالم اليوم، لا بغزوه الثقافي، فذاك أمر كان سائداً في القرنين الثامن والتاسع عشر، ولكن بتفاعلنا مع عالم اليوم عن طريق غزو العلم التجريبي التطبيقي الذي يتطلب منا جهداً في بيان « منهجية القرآن المعرفية » يعادل جهد أسلافنا الكرام في مواجهة الغزو الفكري الذي دق أبوابنا مع الثورة الفرنسية، إذ كنا نواجه وقتها حالة عقلية مجرّدة، وبإمكانيات الوضعية العقلية المحدودة.

أمّا الآن فإنّ المواجهة مع عقل علمي تجريبي فرض نفسه، وأعاد صياغة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية كلها بمرجعية تجريبية، فإمّا أن نتحول إلى موقف الدفاع اللاهوتي العاجز - ومنا من يفعل ذلك - وإمّا أن نتحول إلى العمل على اختراق النسق الحضاري والثقافي المعاصر برؤية قرآنية كونية وجامعة! فهذه العلوم التجريبية - كافة - ما زالت تتعثر في انطلاقاتها، مقيدة إلى الجزئي، ولم تأخذ بُعداً كونياً كلياً يحتويها، والبعد الكوني كامن في الوحي

القرآني: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ غافر: ٥٦، ٥٧.]

ومع كون المهمة عالمية يتأكد - أيضًا - كونها قرآنية
محضة، فأمام التدافع الديني، وإفلاس الأنساق الحضارية
العالمية، وختم النبوة، وبروز الأزمات الفكرية والمعرفية
عالمياً ومحلياً، يتصدى القرآن وحده لخوض معركة شاملة
باعتباره كتاب وحي مطلق، ليستمر في عطائه وكرمه بعد أن
لم يعد لدى الآخرين ما يقدمونه، فهي معركة اختبار لنا في
مدى فهمنا لمنهجية القرآن وقدرتنا على إصلاح وتسديد
المسيرة الحضارية به، وإخراج مختلف مناهج العلوم من
أزماتها عبر « الجمع بين القراءتين »، فالعلوم المعاصرة قد
بلغت اليوم مراحل متقدمة جداً في معرفة وإدراك الظواهر،
فلم تعد الظواهر كما فهمها جمهرة المتقدمين أو تمثلها
العالم القديم؛ تلك الظواهر الشاخصة والمجسدة أمام العين
الناظرة، فالحواس التي كانت هي وسيلة التعقل أفسحت
المجال الآن لحواس مجهرية وإلكترونية، أعطت مفاهيم
جديدة للظاهرة، فإذا فهم الأقدمون الذرة باعتبارها حبة رمل
أو تراب مرئية، فإن الذرة اليوم ذرة مجهرية قد تحول معناها

مما يبصر إلى ما لا يبصر: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا بُنِيْتُ ﴾ (٣٨) وَمَا لَا بُنْيُوتَ ﴿ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، وصارت تفجّر وتحول إلى طاقة، وهنا نفهم دقة القرآن المجيد وحكمته في قوله: ﴿...إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ [لقمان: ١٦].

وحيث فهم الأقدمون الأطوار التاريخيّة فهمًا تعاقبيًا تكراريًا قائمًا على « كرّ الجديدين » الليل والنهار، فإنّ الأطوار اليوم تتمثل في صيرورة وتغيّرات كيفيّة لا مجرد تغيّرات كمّيّة فقط، وهذا هو الذي يوضح المراد بالسببيّة العلميّة المعاصرة التي تقوم على صيرورة وتحولات كيفيّة بالدرجة الأولى.



منهجية القرآن والمصير الإنساني

ليست قضية « منهجية القرآن » إذن مجرد ضرورة، أو حاجة فلسفية مجردة؛ لأنها وهي تقدم « الجمع بين القراءتين » تقدم دليل إنقاذ الفكر البشري من أزمة اللاهوت المستلب للإنسان والطبيعة، وهي - في ذات الوقت - تخرج من الإطار الوضعي كل ما يفصم العلم عن خالقه، فلكل من المنهجين آثاره وإسقاطاته على حياة الإنسان ونسقه الحضاري ومبادئه وتشريعاته؛ فمنهجية القرآن - عند التأمل الجاد لها - تعد أهم مقدمة لبديل حضاري عالمي لا يستهدف إصلاح أوضاع المسلمين فقط، بل يستهدف إصلاح العالم كله، وهذه مهمة تتطلب الكثير من البحوث المميّزة الجادة في القرآن العظيم نفسه؛ بفهم تحليلي جيد ومن منظور علمي وعالمي منهجي، وهذه هي غاية « منهجية القرآن » الأساسية: أن تجعل من القرآن كتاب هداية، ودليل استخلاف، وسبيل خلاص، ومنطلق عمران. إنه - دون فهم القرآن فهماً منهجياً في إطار وحدته وبنائيته الكاملة فهماً يتصل وينعكس على فهمنا المنهجي المعاصر للظواهر الكونية، وسنن حركتها في « وحدتها البنائية » أيضاً - يستحيل تأسيس عمران سليم، فمنهجية العالم المعاصرة من شأنها أن تردّ الكثرة إلى الوحدة،

وتحلل الظاهرة بحثاً عن العلاقات والسنن الكامنة فيها وفيما وراءها، ولا يكتفي بتفسيرها، والقرآن « الممكنون المجيد الكريم » قابل في وحدته البنائية الكلية لهذا الفهم المنهجي، بحيث ندرس الكتاب الكريم بمثل المنهجية التي يدرس بها العلماء الكون العظيم، وكما ذكرت بعقلية علمية عالمية قادرة فاعلة تستطيع إدراك التداخل المنهجي بين « منهجية القرآن » و « سنن ومنهجية الكون ».

لا شك أن هناك أزمة لا بد للعالم من تجاوزها والتغلب عليها، وتبدو هذه الأزمة - بوضوح - في أن العقل العلمي العالمي المعاصر يرفض كل الكتب الدينية، وإذ يتسامح مع بعض موضوعاتها فإنه يصمم على رفض منهجية أي منها، ولا يدرك وحدة بنائية لأي منها، ولا يتفهم إطارها الغائي، مؤكداً على أن اختصاص أي كتاب ديني يجب أن يتوقف عند القنوات الإيمانية وغيبات ما وراء الطبيعة.

وبالتالي فإن « الجمع بين القراءتين » - الغيبية والموضوعية - يبدو في نظر هؤلاء العلمويين مستحيلاً طالما أن هناك مقولات في الكتب الدينية تتعلق بالغيب الذي لا يمكن إدخاله المختبر والتجريب عليه. فإنه لا مجال لاتخاذ أي منها مصدراً من مصادر العلم، وإلا تم تزيف العلم أو هدم نظرياته، فكل ما تشير إليه الكتب السماوية من كائنات غير مرئية أو بعض القصص التاريخية الذي

لا يخضع لاختبارات العلم الوضعي المعاصر لا يملك أحد - في نظرهم - إعطاءه الصفة العلمية؛ ولذلك خرجت اليونسكو على العالم بتعريف للمعرفة ينص على أنها: « كل معلوم خضع للحسّ والتجربة ».

إنّ هذا المنطلق يصدر عن فهم خاطئ لم يلاحظ قضية « الجمع بين القراءتين »، فغاية « الجمع بين القراءتين » أن تنتهي إلى « فهم كونيّ » للوجود لا يقتصر على القراءة الثانية بمفردها، فلو اكتفينا بالقراءة الثانية فقط لبقينا في حدود الإطار الوضعي للفكر الإنساني ومقولاته حول الوجود، ولمارسنا مفهوماً يعتمد على تفكيك الظاهرة وتجزئتها انطلاقاً من « الجدليّة العلميّة المعاصرة واحتماليّتها ونسبيّتها ».

وهنا تبرز محاذير القراءة الثانية المنفردة؛ إذ إنّها تنتهي بنا إلى فكر وضعيّ جزئيّ لا إلى فكر كونيّ، أمّا حين نجمع القراءة الثانية مع الأولى، فإنّنا نخرج من الجزئيّ الموضوعيّ المحدود إلى الكليّ في إطلاقه الكونيّ بما فيه من ظواهر مرئيّة وغير مرئيّة، فكل رفض لما يسمونه بالغيبيّات والماورائيّات هو رفض للقراءة الأولى، القراءة الكونية - في الوحي - باسم الله خالقاً؛ فالوحي كليّ يستوعب الجزئيّ، والقراءة الأولى تأخذ بعين الاعتبار كل الغيبيّات والماورائيّات كجزء أساسي في المنهج لا باعتبارها مجرد

مسلمات يجب الإيمان بها فقط، ولكن باعتبارها دليلاً على وجود كوني أكبر من معطيات القراءة الثانية، وهذا ما يعطي الخلق حقيقته الكونية المتكاملة، فاستبعاد الغيبات هو استبعاد للقراءة الأولى التي نجد دلالاتها على مستوى الوجود والخلق الكوني، فهي ليست أساطير أولين كما يتوهم البعض، بل هي أمور ثابتة بأدلة كافية للتدليل على وجودها، وإذا لم نأخذ بدلالاتها فذلك قد يردنا إلى القراءة الثانية الوضعية المتفردة، فلا يسمح لنا ذلك بمعرفة التاريخ الكوني في معناه الحقيقي؛ فالقراءة الأولى لا تطلب فقط منا الإيمان بوجود الله، ولكنها توجه إلى ألوهية الله وهيمنة كلماته على التكوين الكوني وارتباط المصير الإنساني بالتخليق الكوني كله؛ أي منهجية الخلق المستوعبة لمنهجية الأشياء الموضوعية التي نتعلمها بالقلم، فنجمع بين منهجية الخلق «بالله خالقاً» ومنهجية الشيئية التي يرصدها ويسطرها «القلم» في قراءة كونية واحدة، فيتحقق الإطار الإيماني الشامل وإلا صارت المنهجية قراطيس انتقائية تميل بتحيز ذاتي إلى القراءة الثانية دون الأولى.

إن العالم ليخرج من أزمتة الفكرية والحضارية يحتاج لإدراك البعد الكوني بمعناه الغيبي في تركيب الوجود ومصيره، وتلك هي مهمة القراءة الأولى التي تبدو للبعض قراءة يجب استبعادها من الدائرة العلمية؛ لأنها قراءة في

الوحي الذي استبعدوه، وعلينا أن نرد الإنسانية إليه ردًّا جميلًا. إنَّ المهمة كبيرة والتحدي ضخم متسع باتساع هذه الكونيَّة، وبدايتها « الجمع بين القراءتين »، وغايتها إنقاذ البشريَّة ليعم الخير ويسود الحق ويتنشر الهدى، ويدخل الناس في السلم كافة؛ طريق القرآن، وتشرق الأرض بنور الإيمان والقرآن. واستمرارنا في الحوارات العلميَّة الهادفة والتطبيقات المنهجية سوف يؤدي إلى إزالة هذه العقبة وغيرها من العقبات من طريق القرآن. وتعامل أصحاب التخصصات المختلفة مع « منهجية القرآن المعرفية » سوف يؤدي إلى الكشف عن جوانبها العديدة، وإقناع العلماء والباحثين بدقتها وسلامتها، وضرورة تفعيلها، والبناء عليها.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٢١].



خاتمة

وبعد؛ فهذه قضية « الجمع بين القراءتين »، وإن شئت أطلقت عليها « نظرية ... »، قضية تعرض إليها بإيجاز بعض كبار علمائنا أمثال الحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي وإمام الحرمين والفارابي والغزالي والرازي وابن حزم والقاضي عبد الجبار الهمداني. كما تجد شذرات تنبه إليها في الموسوعات الأصولية. وتنادى لها الإصلاحيون في إطار اتجاهات « المقاربات الفكرية » للفكر الوافد: الشيخ محمد عبده، ومحمد إقبال، ومصطفى صبري وغيرهم، فلم تأخذ حظها من التداول بين أهل العلم لتتضح، وتستوي على سوقها، وتبرز جوانبها. وزاد في وضع الحواجز بين العقل المسلم وإبرازها منهاجاً، أو محدداً منهاجياً ما عرف بـ « الإعجاز العلمي »، وقد رأيت أنّ الشقة بين « الجمع بين القراءتين » و « الإعجاز العلمي » بعيدة جداً.

ولعل من أهم معاصرنا الذين تناولوها الأخ محمد أبو القاسم حاج حمد المفكر السوداني - يرحمه الله - الذي قدمها في إطار فلسفي شيق، ونحن إذ نقدمها لأمة القرآن اليوم بهذه الحلة مترسمين خطى من سبقنا، فإنّ لنا كبير الأمل في أنّنا قد أبرزنا أهميتها في محاور « المنهجية القرآنية »، وأظهرنا كونها موضوعاً شديداً الأهمية عظيم الخطر.

وهذه الدراسة - على ما بذلنا فيها من جهد نحسبه عند الله - دراسة مختصرة وجيزة استهدفت تنبيه الباحثين من تخصصات مختلفة إلى هذا الموضوع المعرفي الهام؛ ليتناول الأكفاء منهم جوانبه المختلفة، وتفصيله المتعددة، كلُّ من زاوية تخصُّصه واهتمامه، فذلك ما سوف يلور هذا الموضوع، وينضج قضاياها، ويساعد على تقديمه للباحثين باعتباره محدّدًا منهاجيًّا سوف يساعد بعد ذلك إبرازه وإنضاجه على معالجة كثير من الإشكاليات في مجالات معرفيّة متنوعة: في فلسفة العلوم الطبيعيّة، وفي الدراسات الدينيّة - إن صح التعبير - إضافة إلى المعارف والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وبعض القضايا الفكرية؛ ولذلك فإنّنا نهيب بالباحثين الأكفاء أن يعملوا على إنضاج هذا الموضوع الهام، ويبنوا عليه ليستوي على سُوقه إن شاء الله - تعالى - ولو بعد حين... والله وليّ التوفيق.



قائمة المراجع

- ابن الأثير، المبارك بن محمد الشيباني: جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق محمود الأرناؤوط، رياض عبد الحميد مراد، محمد أديب الجادر؛ إشراف عبد القادر الأرناؤوط، بيروت، دار ابن الأثير (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).

- الإصلاحي، محمد أجمل محمد أيوب: مفردات القرآن للفراهي وأهميته في علم غريب القرآن، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

- إقبال، محمد: تجديد الفقه الديني في الإسلام، تحقيق عباس محمود العقاد، مهدي علام (ط ٢) القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٦٨م).

- الألوسي، محمود شكري: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تصحيح علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

- إمام الحرمين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الغياثي: غياث الأمم في التياث الظلم (ط ٢) (د.ن) (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم: صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب (ط ٣) دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الإمامة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

- البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد: تفسير البغوي؛ معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش (ط ٤)، الرياض، دار طيبة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن: نظم الدرر في بيان تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرازق غالب المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي: أحكام القرآن للشافعي، جمع محمد بن زاهد الكوثري، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، بيروت، دار الكتب

العلمية (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

- الترمذي، محمد بن عيسى بن سوره: سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الرحمن محمد عثمان (ط ٢) بيروت، دار الفكر (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد: زاد المسير في علم التفسير، تحقيق أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

- حاج حمد، محمد أبو القاسم: العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، بيروت، دار ابن حزم (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

- الحارث المحاسبي، الحارث بن أسد: الرعاية لحقوق الله، تحقيق عبد الحليم محمود، القاهرة، دار المعارف (١٩٩٠م).

- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد: المحلى، بيروت، دار الآفاق الجديدة (د.د.).

- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن هلال: المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الحديث (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

- الخطيب، محمد عجاج: السنة قبل التدوين (ط ٤)، القاهرة، مكتبة وهبة (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

- ابن خلاد، الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي: أمثال الحديث، تحقيق عبد العلي عبد الحميد، بومباي، الدار السلفية (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م).

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد: المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار نهضة مصر (٢٠٠٤م).

- الخولي، أمين: التفسير، نشأته، تدرجه، تطوره، بيروت: دار الكتاب اللبناني (١٩٨٥م)

- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل: سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي (ط ٢) بيروت، دار الكتاب العربي (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

- دروزة، محمد عزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم وأحوال وأخلاق

ومواقف اليهود وفي عصر النبي ﷺ وبيئته من القرآن الكريم، بيروت، المكتبة العصرية (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).

- دروزة، محمد عزة: القرآن والمبشرون (ط ٣)، بيروت، دمشق، المكتب الإسلامي (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

- الذهبي، محمد حسين: الإسرائيليات في التفسير والحديث (ط ٣) القاهرة، مكتبة وهبة (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: تفسير الرازي، تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر المعاصر (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

- الرازي، محمد بن عمر بن الحسين: المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق طه جابر العلواني، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

- الرازي، محمد بن عمر بن الحسين: مفاتيح الغيب، القاهرة، المطبعة العامة الشرفية (١٣٢٤هـ).

- الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ط ٢) منقحة، بيروت، دار المعرفة (١٣٩١هـ/١٩٧٢م).

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

- الشافعي، محمد بن إدريس بن العباس: الرسالة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، القاهرة، مطبعة البايع الحلي (١٣٠٩هـ).

- صبري، مصطفى: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، بيروت، دار إحياء التراث العربي (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

- الطباطبائي، السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، قم، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية (١٤١٧هـ).

- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد: تفسير الطبري، تحقيق بشار عواد معروف،

- عصام فارس الحرستاني، بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
- الطوسي، محمد بن الحسن بن علي: التبيان في تفسير القرآن، تقديم أغا بزرك الطهراني، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت).
- الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود: مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، القاهرة، هجر (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
- ابن عاشور الطاهر، محمد الطاهر ابن محمد بن عبد القادر: تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر (١٩٨٤م) (٣٠ ج).
- عبد الخالق، عبد الغني: حجية السنة، بيروت: دار القرآن الكريم، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).
- ابن العربي، محمد بن علي بن محمد: أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).
- العلواني، طه جابر: إشكالية الردة، القاهرة، دار الشروق الدولية، (د.ت).
- العلواني، رقية طه جابر، أثر العرف في فهم النصوص: قضايا المرأة أنموذجاً، دمشق، دار الفكر (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
- الغزالي، محمد بن محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دمشق، دار قتيبة (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
- الفارابي، محمد بن محمد بن طرفان: التنبيه على سبيل السعادة، تحقيق جعفر آل ياسين آل سعود، بيروت، دار المناهل (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).
- الفراهي، عبد الحميد: إمعان في أقسام القرآن، دمشق، دار القلم (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
- فياض، محمد جابر: الأمثال في القرآن الكريم، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة (١٩٨٨م).
- ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد المعتمد بالله البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).
- ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، تصحيح محمد منير الدمشقي، بيروت،

دار الكتاب العربي (د.ت).

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر البصري: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي ابن محمد السلامة (ط ٢) الرياض، دار طيبة (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر البصري: فضائل القرآن، تحقيق حجازي بن محمد بن شريف، القاهرة، مكتبة ابن تيمية (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق عصام فارس الحرساني، محمد إبراهيم الزغلي، بيروت، المكتب الإسلامي (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

- محمد عبده بن حسن خير الله: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تقديم محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية (١٩٨٠م).

- مسلم بن الحجاج بن مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

- ناصف، مصطفى: مسؤولية التأويل، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

- نعناعة، رمزي: بدع التفاسير في الماضي والحاضر، الرياض، مؤسسة الأنوار (١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م).

- الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دمشق، دار المأمون للتراث (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

- ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، بيروت، دار الكتب العلمية (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).



نَبَذَهُ عَنِ الْمُؤَلَّفِ

أ.د طه جابر العلوانى..

من مواليد العراق عام (١٣٥٤هـ / ١٩٣٥ م).

- دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر (١٣٩٢هـ / ١٩٧٣ م).

- ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م).

- ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر (١٣٧٨هـ / ١٩٥٩ م).

- شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة عام (١٤٠١هـ / ١٩٨١ م) ثم ترأسه مدة عشر سنوات (١٩٨٦ - ١٩٩٦ م).

- رئيس جامعة قرطبة في الولايات المتحدة منذ (١٩٩٦ م) وحتى الآن.

- عضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.

أحدث المؤلفات:

- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية (٢٠٠٥ م).

- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، بيروت: دار الهادي (٢٠٠١ م).

- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت: دار الهادي (٢٠٠١ م).

- أفلا يتدبرون القرآن، القاهرة: دار السلام (٢٠١٠ م).

- التعليم الديني بين التجديد والتجميد، القاهرة: دار السلام (٢٠٠٩ م).

- الجمع بين القراءتين، القاهرة: دار السلام (٢٠١٤ م).

- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي، بيروت: دار الهادي (٢٠٠١ م).

- لا إكراه في الدين، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية (٢٠٠٥ م).
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، (٢٠٠٦ م).
- المحصول في أصول الفقه للرازي، تحقيق ودراسة، القاهرة: دار السلام (٢٠١١ م).
- معالم في المنهج القرآني، القاهرة: دار السلام (٢٠١٠ م).
- مفاهيم محوريّة، بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل، القاهرة: دار السلام (٢٠٠٩ م).
- مقاصد الشريعة، بيروت: دار الهادي (٢٠٠١ م).
- مقدمة في إسلامية المعرفة، بيروت: دار الهادي (٢٠٠١ م).
- نحو إعادة بناء علوم الأُمَّة الاجتماعية والشرعية، بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل، القاهرة: دار السلام (٢٠٠٩ م).
- نحو التجديد والاجتهاد، جزآن، القاهرة: دار تنوير (٢٠٠٨ م).
- نحو منهجية معرفية قرآنية، بيروت، دار الهادي (٢٠٠١ م).
- نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه، القاهرة: دار السلام (٢٠١٠ م).
- نحو موقف قرآني من النسخ، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، (٢٠٠٦ م).
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، (٢٠٠٦ م).





(من أجل تواصلٍ بناء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .
نشكر لك اقتناءك كتابنا : « الجمع بين القراءتين : الوحي والكون »
ورغبة منا في تواصلٍ بناء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌ
بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائماً بملاحظاتك ؛ لكي ندفع
بمسيرتنا سوياً إلى الأمام .

* فهتأ مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-

الاسم كاملاً : الوظيفة :

المؤهل الدراسي : السن : الدولة :

المدينة : حي : شارع : ص.ب :

هاتف :

 /

 e-mail :

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : المدينة : العنوان :

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضع لَم)

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضع لَم)



- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) العملة

- هل صادفت أخطاء طبعية في أثناء قراءتك للكتاب ؟

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء طبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك
من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوان ودون ما يجول
في خاطرك : -

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما
يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها
خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية
لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا